روايات اسلامية معاصرة

الظلّ الأسوَد

نجيب الكيلاني

دار النفائس

الطبعة الأولى

١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

© دار النفائس

بيروت: ص.ب ١١/٦٣٤٧ - هاتف ٨١٠١٩٤ - برقياً: دانفايسكو

الظلّ الأسوَد

بسم الله الرحمن الرحیم

شخصيات الرواية

- إياسو : امبراطور الحبشة منذ عام ١٩١٣ م (شاب)
- ميكائيل : والد إياسو ـ مسلم متنصر ـ حاكم مقاطعة « والو » بالحبشة
- شوأرقاش : زوجة ميكائيل وأم إياسو وابنة الامبراطور منليك
- مالفن : شقيقة إياسو
- زوديتو : خالة إياسو ـ عينت امبراطورة للحبشة لفترة
- غوغسا : حاكم مقاطعة وزوج الامبراطورة زوديتو
- الرأس تفري : حاكم مقاطعة وزوج مالفن ، عين امبراطوراً للحبشة بعد زوديتو
- زوجة إياسو الأولى
- زوجة إياسو الثانية
- طباخ تفري
- وصيفات وخدم
- الأنبا ميتاوس : مطران الحبشة في فترة حكم إياسو .

١

قال الشاب « إياسو » في اشمئزاز بالغ :

أبتي . . إنني أكاد أختنق . لشد ما أكره هؤلاء القساوسة ، إنهم يتحدثون كثيراً عن الله ، وملكوت السماء ، وعن المسيح الذي حمل على كاهله آلام البشر وخطاياهم حتى يحقق لهم الغفران ، لشد ما يخنقني يا أبتاه أن أرى تلك الأقنعة الزائفة على وجوههم . إن عيونهم تبرق بالشر وهم يتحدثون عن الرحمة ، ويطنبون في الكلام عن الاستقامة والخلق القويم مع أن رائحة الخمر تفوح من أفواههم ، ولا يفتأون يرددون عبارات الأخوة والتسامح وبركات الله ، وتاريخهم كله آثام سود ومجون وعربدة ، ومشاجرات بين بعضهم بعضاً . . .

هب الامبراطور الشاب إياسو واقفاً وقد احتقن وجهه الأسمر ، وبان الضيق والأسى في عينيه ، وهتف في إصرار :

ـ « لا . . لن أقابل « الأنبا ميتاوس » .

قال أبوه ميكائيل محذراً :

ـ « أي ولدي العزيز إياسـو . . لا تنسَ أنك نجـاشي الحبشة وامبراطورها العظيم ، ولا تنسَ في الوقت نفسه أن « الأنباميتاوس » هو مطران الحبشة وصاحب النفوذ الضخم في أرجاء البلاد . . »

تنهد إياسو في حنق وقال :

ـ «لقد برمت بهذا النفاق . . إنني أكرهه . . أكرهه . . »

ابتسم ميكائيل في هدوء وقال :

ـ « وأنا مثلك . . أكره هؤلاء الأوغاد . . كما أكره اسمي الجديد « ميكائيل » ما أروع ذلك الاسم القديم « محمد علي » أيام كنت أحكم مقاطعة « وللو » . . لكن عليّ أن أحتفظ باسمي الجديد حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً . . من كان يظن أن ابن محمد علي سيكون إمبراطوراً للحبشة ؟؟ إنه لشيء غريب يا ولدي ، إن الأقدار تلعب دوراً خطيراً . . فلنصبر ولننتظر . . فأنا وأنت الآن ، كل واحد منا يؤمن بالديانة المسيحية . . هذا هو المفروض . . والله ينظر إلى قلوبنا ، ويعرف العقيدة الكامنة فيها . . والآن يجب أن تحسن التصرف . . أتفهمني ؟؟ فلتسمح فوراً بلقاء « الأنبا ميتاوس » ، وليسمع منك كل ما يطمئن باله ، ويريح فؤاده ، وحذار أن يكشف عن نواياك . . أنا لا أخاف على حياتك أو على حياتي ، بل كل ما أفكر فيه هو أولئك الملايين من المسلمين الذين يسكنون روابي الحبشة وسهولها وقراها ومدنها . . إن هؤلاء أمانة في عنقك ستُسأل عنها أمام الله . . يجب أن تضحي بكل شيء من أجلهم يا « إياسو » الحبيب . . هلمَّ . . هلم يا ولدي . . . »

واندفع الأنبا ميتاوس نحو قاعة العرش الامبراطوري . وكان الجو حاراً والعرق يسيل على جبينه الأسمر ، ووجهه المنتفخ ، وهو يشعر برغبة جارفة في أن يحك لحيته الكثة التي تناثرت فيها شعرات بيض . ومع ذلك فقد هرول بأرديته السوداء الفضفاضة الثقيلة ، تلك التي تزيد من شعوره بالحر والضيق ، وما أن وقف قبالة الامبراطور الشاب « إياسو » حتى هتف في نبرات خفيفة محاولاً أن تبدو رقيقة ندية :

-«المجد لله في الأعالي ، وعلى الأرض السلام ، وبالناس المسرة »

وتمتم اياسو بينه وبين نفسه : « السلام . . المحبة . . يا إلهي ما أشقى بني البشر حيث يخدعون بالألفاظ البراقة . . آه . . إنها الكلمات نفسها التي كانوا يرددونها على مسمع من جدي الراحل « الامبراطور منليك » . . كانوا يملؤون عقله بالترهات ، ويغذون روحه بالحقد ، فيندفع بجيوشه الى الشمال والشرق والجنوب فيذبح الأبرياء من المسلمين، ويدمر مساجدهم، ويقيم على أنقاضها الكنائس والأجراس، ويحرق القرى المسلمة الآمنة بمن فيها، ويذبح العلماء، ويصادر المواشي والثروات، ويطرد المساكين من أراضيهم كي يعطيها لجماعات المبشرين . . كل ذلك باسم الله . . باسم السلام والمحبة . . وتدق الأجراس . . أجل . . وتدق الأجراس . . أيها المطران العظيم ، وتعلو الترانيم الآلهية . وتدق طبول النصر ، ويهتف الجلادون على أشلاء الضحايا والشهداء « المجد لله في الأعالي . . وعلى الأرض

السلام وبالناس المسرة . .»وتنهال البركات على جدي العظيم « الامبراطور منليك » . . » .

وأفاق إياسو من شروده على صوت المطران يقول :
- « مولاي !! ألا تسمعني ؟؟ »

وهمَّ إياسو أن يبصق في وجهه ، أو يصرخ به كي يغادر المكان فوراً ، لكن يد أبيه « ميكائيل » ربتت على كتفه في حنان ، فأدرك إياسو الموقف ودقته فقال في صوت هامس :

- «معذرة أيها المطران المقدس . . أشعر بالارهاق والصداع الشديد . . لقد عذبني الأرق طوال الليلة الماضية . . تفضل بالجلوس . . »

ابتسم المطران في سماحة مصطنعة ، وتمتم :
- « إنني أعرفك يا حفيد « منليك العظيم » . . »

دق قلب إياسو في قلق :
- « ماذا تعني أيها الأب المقدس ؟ »
- « إنكم رجال حرب وغزو . . ، واذا خرجتم عن هذه السياسة داهمكم الأرق ، وتناوشتكم الآلام والأعراض . . إن بعض الإمارات الاسلامية قد رفعت رأسها من جديد ، وبعض القبائل الوثنية في الجنوب اعتنقت الإسلام . . »

ثم أخرج المطران من جيبه لفافة ضخمة من الأوراق ، أخذ يقلب فيها ، ثم قال :
- « ومعي إحصائيات كاملة بعدد المساجد التي لا بد من

هدمها ، وكذلك بعض المدارس « والكتاتيب » التي تعَلِّم القرآن واللغة العربية والآداب الإسلامية . . ومعي أيضاً قوائم بأسماء العلماء والرجال الذين يوجهون هذا النشاط الخطر ، ومجلس الكنيسة الأعلى قد قرّر استئناف الحملات التأديبية ضد هؤلاء جميعاً . . يجب أن تستأنف الحرب التي شنها جدك منليك ، ولا تلقِ السلاح حتى تقضي على آخر أمل يخفق في قلوب هؤلاء المسلمين الكفرة التعساء . حلفاؤ نا الغربيون من طليان وانجليز وفرنسيين على استعداد لمدك بكل ما تحتاج اليه من سلاح وخبرات . . إنهم إخواننا في العقيدة . »

تقاطر العرق على جبين إياسو الأسمر ، وتمتم وهو يغالب عواطفه الجياشة :

ـ « أليس هناك طريق غير الحرب ؟؟ »

ـ « أثبتت الحوادث التاريخية المتتابعة أنهم لا يرضخون إلا لحكم السيف. إن عنادهم، وتشبثهم بعقيدتهم فوق الطاقة . . إنني أحمل إليك ما استقر عليه رأي القساوسة والرهبان وحلفائنا الغربيين . . ثم إنها الخطة نفسها التي سار عليها جدك العظيم منليك . . »

وتمتم إياسو دون وعي :

ـ « . . وعلى الأرض السلام . . »

وضحك المطران في أدب :

ـ « لا يكون السلام إلا بعدما يعود المارقـون المسلمون الى حظيرة الرب »

وعاد إياسو إلى شروده وغمغم :

- « . . وبالناس المسرة . . »

أردف المطران :

- « لا مسرة إلا بالنصر على هؤلاء الأوغاد . . عندئذ تدق الأجراس في صفاء . وتعلو الترانيم الحلوة في الوهاد والروابي والغابات الشاسعة . . وتصبح الحبشة أرض الرب . . أرض يسوع المخلِّص . . »

هز إياسو رأسه ، ثم قال :

- «حسن . . أهناك مطالب أخرى ؟ »

عبث المطران بأوراقه وقال :

- « إن المجلس الأعلى للكنائس في حاجة الى قدر كبير من المال » .

- « لماذا ؟؟ »

- « لإصلاح حالهم . ونشر رسالة الرب . وبناء بعض الكنائس . . »

- « لكن مدخرات الدولة لا تكفي الحرب والكنيسة . . »

- « إنهما شيء واحد أيها الامبراطور العظيم . . ثم إن مزارع المسلمين وقراهم مليئة بالخيرات ، حيث الزرع والضرع وخيرات الأرض الطيبة ، فما عليك إلا أن تصدر أمرك بفرض الضرائب الجديدة ، ولسوف يؤدونها وهم صاغرون . . »

هبَّ الامبراطور واقفاً ، وتصنع الابتسام قائلاً :

- « لسوف ننظر في هذه الأمور جميعها »

قال المطران في هدوء :

- « كان جدك منليك لا يرفض طلباً للكنيسة . . »

- « أعرف ذلك . . »

- « وما نظنك إلا سائراً على نهجه القويم . . »

تمتم إياسو :

- « كن مطمئناً أيها الأب . . لن أحيد عن النهج القويم . . لقد وهبت نفسي لله . . »

انفرج فم المطران عن ابتسامة عريضة ، وقال :

- « إن ظننا فيك لم يخب . هذا ما توقعناه »

بعد أن خرج المطران ، بقي إياسو قابعاً في مكانه ، ورأسه يدور ، وعيناه تحملقان دون أن يرى شيئاً حوله . . إنه طائر بخياله إلى بعيد . . حيث القرى الآمنة ، والزرع الأخضر ، والأطفال الصغار يمرحون ويهزجون بأغاني الحياة الحلوة الشجية ، والسلام ينشر ظله الوارف على الربوع المترامية الأطراف ، والأحلام الطيبة تداعب القلوب ، وتنعش الأرواح . . وفجأة تثب الى ذهن إياسو صورة أخرى مناقضة للصورة السابقة تمام المناقضة . . حشود كالوحوش تهجم بسيوفها ونيرانها . . تريق الدماء . . وتحرق الأخضر واليابس ، وترتفع ألسنة اللهب مجنونة هادرة . والدخان الأسود يملأ الآفاق ، ويعمي العيـون . . والصغار يصرخون . والحمائم البيض تفر مذعورة أمام الهول الشيطاني . . يا إلّهي لم كل هذا ؟ وبأي حق ؟ . . المحبة ، السلام ، المسرة ، الرحمة . . وصبرخ إياسو وقد انهمرت الدموع

من عينيه :

ـ « إنهم يكـذبـون . . إنهـم يكـذبـون . . هـؤلاء الوحوش . . »

أمسك أبوه بذراعه في رفق وهتف مذعوراً :

ـ « ماذا جرى لك يا إياسو المسكين . . »

ـ « هذا التاج ثقيل يا أبتي . . أولئك المتعصبون يريدون أن يسوقوننا الى الجحيم . . مستحيل . . إنهم يكرهون الإنسان . . ويمقتون حرية البشر . . »

ثم أدار الى أبيه وجهاً بللته الدموع الغزار وقال في أسىً :

ـ « هل من الضروري أن يساق الناس الى طريق الله بالسيوف والسياط ؟؟ وهل هذا هو طريق الله فعلاً ؟؟ إن الله لاشك يكره القهر والدمار وعذاب الأبرياء . . خبِّرني يا أبي : لماذا انتصر جدي منليك ؟؟ لشدّ ما أكرهه !! كيف ينتصر الأشرار ؟ إنني لا أكاد أفهم حكمة الله . . إنني جاهل دَعِيّ . . عاجز ، مقهور . . ليتني كنت راعياً للأغنام . . راعياً بسيطاً يشرب ألبـانها ، ويمـرح بين قطعـانهـا ، بعيـداً عن هـذا الهـول والعذاب . . »

وصمت برهة ، وهمّ أبوه بالكلام ، لكن إياسو اندفع قائلاً :

ـ « أخبرني يا أبي . . أكان محمد صلى الله عليه وسلم يرعى الأغنام »

ـ « أجل »

ـ « ولماذا تركها ؟؟ »

ـ « ليرعى البشر بعد أن تاهوا في الظلمات . . »

ـ « وهل فعل كما فعل جدي منليك ؟؟ »

صرخ ميكائيل كمن لدغته حيّة :

ـ « حاشا لله يا ولدي . . استغفر ربك ، لم يرفع محمد سيفه إلا في وجه معتدٍ على الحرمات . ولم يحرق معبداً ، أو يكره إنساناً على اعتناق دينه . . كان يردد آيات القرآن ﴿ لا إكراهَ في الدين ، قـد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ من الغَيِّ . . ﴾ . كان محمد يدعو ويهدي الى الطريق الحق ، ويحنو على الناس من كل لون وجنس . . كان . . »

أمسك إياسو بكتفي أبيه ، وسدَّد إليه نظرات والهة :

ـ « ولماذا تركت دينك ؟؟ لماذا ؟؟ انه لشيء رهيب !! أجبني وإلا قتلت نفسي . . إنه لأمر يعذبني . . وأنا أحبك . . أنت أبي . . قل لـي : لماذا تحولت من « محمد علي » إلى « ميكائيل » ؟؟

أفلتت دمعة من بين أهداب الشيخ العجوز ، وبدا وجهه المليء بالأخاديد والندوب كئيباً بائساً وقال :

ـ صـدق الله العظيم ﴿ إلَّا منْ أُكْرِهَ وقلبُهُ مطمئنٌ بالإيمان ﴾

وجفف دمعته ثم قال :

ـ « رأيت إخواني وأصدقائي يذبحون أمام عيني . . كنت أسمع صراخ الآلاف حول بيتي يصم الآذان . . وجنود جدك الامبراطور منليك الحاقد ينشرون الرعب والموت في كـل مكان . . وخيّرت بين ترك ديني أو القضاء على المقاطعة

بأسرها . . كنت يا ولدي الحبيب إياسو على استعداد لأن أقذف بنفسي وأسرتي الى الجحيم حتى أنقذ هؤلاء المعذبين . . ثم ما هي العقيدة ؟ هل هي شيء يلفظ به اللسان أو يختلج به القلب ، هل هي كلمات وطقوس أم سلوك وفكر ؟ . . أحسست أن الله لن يغضب عليّ . . قبلت عرض جدك كي أفدي التعساء . . . وقبلت الزواج من أمك « شو أرقاش » إبنة « منليك » . . إن أباك لم يكفر بالله ولم يترك إسلامه . . كنت أختفي عن العيون وأؤدي صلاتي واستغفر الله . . آه . . لو كان الأمر يخصني وحدي لما ألقيت سلاحي قبل أن ألقى الله شهيداً مع إخواني الأبطال . . تلك قصتي باختصار . . وأنت تسمعها للمرة المائة . . وأهالي مقاطعة « والو » الإسلامية التي كنت أحكمها يعرفون المأساة . . آه . . لقد مزقني العذاب والضياع سنين طويلة . . وها أنت تعيدني الى المأساة الحزينة . . لقد صبرت طويلاً حتى تبلغ كرسي الحكم وتصبح نجاشي الحبشة . . والآن يمكننا أن نبدأ من جديد . . أن نصلح ما أفسده القهر والتعصب . . »

هز إياسو رأسه وقال :

ـ « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . . »

ـ « هنيئاً لك . . لكن يجب أن تكتم إيمانك إلى حين . . »

ـ « سأعلنه على الملأ . . فإما أن أنتصر أو أموت دونه . . »

ـ « أيْ ولدي . . لا تحاول قطف الثمرة قبل أن يكتمل نضجها ، ستكون فجّة مرة المذاق . . ومستقبل ملايين

المسلمين أمانة في أيماننا . . أذكر هذا ولا تقع في حبائل الاندفاع . . »

وصدر من خلفهما صوت يعرفانه جميعاً ، إنه صوت زوجة إياسو :

- « لقد حان وقت الغداء »

قال إياسو دون أن يعطيها وجهه :

- « لسوف نلحق بك بعد قليل . . »

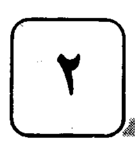
وسمعا وقع خطواتها تبتعد ، وهمس إياسو :

- « هذه الملعونة لشد ما أكرهها ، إن مدارس المبشرين قد طبعتها بطابع ملعون متعصب . . »

- « لكنها وادعة وهي تحبك . . »

- « ان هدوءها الظاهري يخفي وراءه عربدة وانحرافاً لا مثيل لهما . . »

- « هيا بنا . . »



جلس إياسو ساهماً يفكر . . ؛ لم يخفَ على زوجته الفاتنة السمراء أنه يعاني من شيء يخفيه عنها ، فهو قلما يبتسم أو يداعبها مثلما يفعل أيام الزواج الأولى . ترى ما الذي حدث له ؟؟ لم تعد تطيق ذلك ، ويحـه !! أتراه يفكر في امرأة غيرها ؟؟ هذا هو عيب الملوك . إن سلطانهم لا حدود له ، ونساء كثيرات يهمن بهم حباً ولهفة . والتيجان تسبي عقول الغانيات ، وإياسو شاب مليح ، بالاضافة الى ذلك كله مـا أكثر التماثيل والصور الماجنة التي كانت تكتظ في قصور أباطرة الحبشة . ولم لا ؟ ! الرهبان والآباء المقدسون أنفسهم قد يرتكبون الحماقات ، وقد يتصارعون ويريقون الدماء من أجل امرأة جميلة ، هذا على الرغم من تشبثهم بأذيال الدين ، وعلى الرغم من تقدمهم في السن ، فهل يستبعد أن يقع إياسو فريسة لامرأة لعوب ؟ ! ترى من تكون هذه المرأة ؟؟

وأخذت زوجة الامبراطور تشتط في أحلامها هنا وهنا ، والغيرة تلهب كيانها كله . ما قيمة التاج والصولجان إذا ما فقدت

سيطرتها على قلب «إياسو» ؟ إنها أنثى قبل أي شيء ، وإياسو يجب أن يكون لها وحدها ؛ آه لو علمت أية امرأة تلك التي لعبت بقلبِ زوجها إذن لسقتها السم لتوها ، ولأراحت نفسها من عذاب الغيرة ، وأشباح الأرق التي تقلب نومها إلى جحيم لا يطاق . . لكنها لن تسكت ، لسوف ترصد لزوجها العيون ، وتتبع حركاته وسكناته حتى تلم بأخباره . . . ولسوف تستعين بخبرة المطران . . الأنبا ميتاوس ذلك الأب الذي بارك زواجهما . والذي ألقى عليها عديداً من النصائح والعظات قبل الزواج ، فهي تذكر جيداً حين قال لها « ميتاوس » ذات يوم :

- « لسوف ترتبطين بامبراطور الحبشة ارتباطاً مقدساً لا ينفصم . . تلك مشيئة الله ياابنتي : ولن تستطيع قوة في الأرض أن تفرق بينكما . . ولا تنسي الدروس التي تلقيتها في مدارسنا . إن الحبشة أرض الله ، ويجب ألا يدنسها مسلم ، والخلاص من المسلمين يحتاج الى امبراطور أشد مراساً ، وأشرس قلباً من « منليك » ، ولقد شاءت الأقدار أن يقع هذا العبء على « إياسو » فكوني عوناً له على تنفيذ مشيئة الله ،وحاذري أن يقع فريسة الوهن ، أو يستسلم للراحة والنعيم ، وإلا ضاعت آمالنا في تطهير الديار من أعداء الله . . . . تذكرت زوجة الامبراطور كل ذلك . وها هي ترى قلب إياسو ينأى بعيداً عنها ، إنها لم تزل زوجته أمام الناس ، لكن قلبه يبعد عنها آلاف الأميال . هذا ما تشعر به . لقد كان ميتاوس مخدوعاً حينما تصوَّر أن أية قوة في الوجود لا تستطيع أن تفرق بينهما. نسي المطران أن اللقاء الروحي شيء آخر غير اللقاء الجسدي ، وأنه لا قيمة للرباط المقدس المزعوم إذا تنافرت

القلوب . . إنها لم تزل زوجته ، لكن أين الشيء الكبير العظيم الذي يجعل من الزوجين كائناً يكاد يكون واحداً ؟ لم تستطع الصبر ، وأقبلت على إياسو والقلق يلهب فؤادها بسياط لا ترحم وقالت في مسكنة :

- « ما الذي بك يا حبيبي ؟؟ »

رماها بنظرات محتقنة بائسة وقال :

- « لا شيء . . . »

قالت وقد جثت على ركبتيها في ذلة :

- « أي إياسو . . أنا زوجتك فحرام أن تخفي عني شيئاً . . . هل حدث ما يبغّضني إليك ؟ . . تكلم بحق السماء ، إنني على استعداد لأن أفعل ما تأمرني به حتى تنجاب هذه الغمة »

رق قلبه لحالها . . وأثرت فيه دموعها التي لم تنسكب بعد ، وإن لم يزايله ذلك الشعور الداهم الذي يوحي إليه بأن قلبيهما بعيدان بعد السماء عن الأرض ، لكن كيف يفجعها في أعز ما تحيا له امرأة .

قال إياسو ساخراً :

- « مجلس الكنيسة الأعلى يريدني أن أشعل الحرب ، وأخرج في جيشٍ جرار للقضاء على القبائل والمقاطعات الإسلامية . . »

تمتمت في حسرة :

- « أهذا كل شيء ؟؟ »

- « أجل . . » قالها في حزم واقتضاب ، وهو يعلم أنه لم

يفصح لها عن كل ما في قلبه ، لكنه كان مضطراً لأن يفعل ذلك حتى لا يحطم كبرياءها ، أو يزيد من نكدها ، وكان يقصد من ناحية أخرى أن يستمع لما تقول بشأن ذلك الأمر الخطير . .

قالت الامبراطورة الصغيرة :

ـ « لكني أريدك الى جواري » .

ـ « كيف ؟؟ أنعصي أمر الكنيسة ، ونضرب عرض الحائط بتوصيات الأنبا ميتاوس ؟؟ إنه لشيء خطير يهدد سلطاننا . ويزعزع أركان الكرسي الذي أجلس عليه . وقد ينزع التاج من فوق رأسي ، وأنت تعلمين ذلك ، ترى هل أطيعك أم أطيع الأنبا ميتاوس ؟؟ »

خفضت رأسها في حيرة ، ثم قالت :

ـ « ليذهب الجيش لمحاربة المسلمين ، ولتعين له قائداً تثق به ، ولتبق أنت الى جواري . . »

قهقه ساخراً وقال :

ـ « إن الامبراطور الجديد يجب أن يثبت إخلاصه لله وللكنيسة . . . وذلك في أن يكون على رأس الجيش ، وأن يقدم القرابين . . أتفهمين ؟؟ القرابين من دماء البشر . . »

قالت : ـ « المسلمون ليسوا بشراً . . . إنهم أنجاس كفرة ، ومع ذلك فقد أتتني فكرة ، لتذهب على رأس الجيش ، ولأكن معك . . لا أريدك أن تفترق عني . . ثم إن بي شوقاً جارفاً لرؤية تلك المشاهد التاريخية الرائعة . . أن أرى جوادك الفارع يطأ جثث هؤلاء العبيد المارقين . . »

. . . إنها سافلة ملعونة مثلهم ، حسبتها تكره الحرب لأنها العدوان والوحشية والظلم ، فإذا بها لا تفكر إلا في نفسها ، وفي المشاهد الحمر التي تثلج فؤادها ، إنها لم تزل تعيش في المستنقع الآسِن الذي يلغ فيه المتعصبون من رجال الدين والكنيسة وعلى رأسهم الأنبا ميتاوس ، وكظم غيظه وقال :

- « ولماذا نقتل المسلمين ونسبي نساءهم ونحرق قراهم ؟ »
- « لأنهم ليسوا على حق . . »
- « وهل فعل المسيح ذلك بمن خالفوه في الرأي والعقيدة»؟
- « لا أدري . . »

فصرخ إياسو محتداً :

- « بل تعرفين ، ولكنك تخدعين نفسك . . »
- « الأنبا ميتاوس ورجال الكنيسة يعرفون أكثر مما نعرف . . »

- « المعرفة أيتها الغبية ليست حكراً على مجموعة بعينها ، هؤلاء القساة الطامعون من رجال الكنيسة يرسون قواعد دين جديد كله على اختراع وانحراف من صنع أذهانهم وأحقادهم ، الفاشلون وحدهم هم الذين يسوقون الناس بالسياط والسيوف الى حظيرة رأيهم . . لو كانوا على حق لتدافع الناس طواعية وبدون قهر الى الطريق الحق . . أنتم لا تقرأون الأناجيل . . بل توصيات القساوسة وأوامرهم هي الأناجيل الجديدة . . »

قالت الزوجة :

- « أكاد لا أفهمك يا إياسو »

- « لكن كلماتي واضحة . . »
- « واضحة ، لكنها تخالف العرف الذي درجنا عليه . »
- « العرف . ها . . هـا . . ها أنت تعيشين في سجـون التصورات الباطلة كما يفعل الأنبا ميتاوس وحاشيته . . يريد أن يبقى في الكنيسة يرتل الأناشيد ، ويتلو الصلوات ، ويزجي النصائح تحت دقات الأجراس الصاخبة ، وأنا أخوض هناك برك الدمع . وحقول النار والشوك والدماء . . أنا أتعذب والقساوسة الموقرون يأكلون ويشربون ويخادعون النساء ، وينهبون أموال الدولة باسم الأب الممجد . . »

وصمت برهة ، ثم عاد يقول :

- « لماذا لا نحطم جدران ذلك السجن الرهيب الذي أقامه المتهوسون في عقولنا ؟؟ لماذا لا نعيد التفكير من جديد ، ونناقش الأمور دون حكم مسبق ؟ ! ألا يمكن أن نكون على ضلال وعدونا على حق . . »

صاحت في دهشة :

- « مستحيـل . . لا يمكن أن يكون المسلمـون على حق . . »

ابتسم إياسو ابتسامة شاحبة ، ثم سدّد اليها نظرات حانقة ، وقال :

- « زوجتي الـمـسكينة إنني أحتقرك . . »

ارتجفت رجفة مباغتة وقالت :

- « ماذا ؟؟ »

- « لأني أحتقر العبيد الذين تسيرهم أهواء الآخرين . . . »
وأشار الى قلبه بإبهامه وقال :
- « تحرير الروح من هنا . . من القلب . . »
ثم أشار الى رأسه :

- « وتحرير الفكر من هنا . . من العقل المحايد ، الذي يلقي بتعصبه ومخاوفه الى الجحيم . . عندئذ تنتصر المبادىء بلا سيوف أو دماء . . أي زوجتي المسكينة ! إنك ضحية مثل أولئك المسلمين التعساء تماماً . . هم تراق دماؤهم بسيف البغي . وأنت تراق إنسانيتك بسيف الوهم والتعصب ونصائح الرهبان والقساوسة . . »

قالت وقد سددت اليه نظرات ذات معنى :
- « إياسو »
- « نعم . . »
- « إما أنك مريض أو أفرطت في الشراب »
- « ما الذي يدعوك لهذا القول يا زوجتي ؟؟ »
- « أنت تنحاز الى جانب المسلمين وتدافع عنهم . . »
وعاد يقهقه ساخراً :

- « إنني ملِكٌ على الجميع يا زوجتي ، ويجب أن أنشر العدل بين الرعية كافرهم ومؤمنهم ، فقيرهم وغنيهم . . هذا كل ما في الأمر . . »

ورانَ عليهما صمت مطبق .
نسيت الزوجة كل ما كان يفكر فيه زوجها ، لم تعد تذكر سوى

كلمة واحدة أثارت النار في قلبها وجسدها ، فصَاحت والدموع تغرق عينيها :

- « تقول أنك تحتقرني ؟؟ »
- « معذرة يا زوجتي ، لم أكن أقصد ذلك بالضبط . . فقد أردت أن أسفِّه تلك الأفكار الخاطئة التي ألحَّ بها معلمو التبشير على فكرك حتى مسخوه مسخاً مثلما حاولوا معي تماماً . . »

وقالت وهي تجفف دموعها :
- « إذن فأنت لا تحتقرني . . »
- « أهذا هو كل ما يهمّك ؟؟ »
- « بالطبع . . »
- « يبدو لي الآن أن احتقار الآخرين خطيئة لأنهم بشر من خلق الله . . ومع ذلك فإن هناك كثيراً من الألفاظ نتفوه بها تنفيساً عما يغلي في أعماقنا ، إنها مجرد انفجارات عمياء لأنها لا تحمل كل المعنى الذي نريد . . »

ابتسمت . وسرت حمرة في وجنتيها ، وقالت وعيناها الى فراش النوم :
- « لا أفهم الكثير مما تقول ، لقد أصبحت فيلسوفاً يا زوجي . . إنني أشهد لك بذلك . . ومن رأيي أن نكتفي بهذا القدر . . آه لشد ما أنا مشتاقة الى النوم . . »

ثم عادت تقول وهي تجذبه من ذراعه :
- « حسبت أن هناك امرأة أخرى توشك أن تخطفك مني »
وقال وهو يتنهد :

ـ « إن أحلامك لا تزيد عن هذا السرير اتساعاً »
ـ « ولم أحلم بأكثر من ذلك . . إنه يتسع لاثنين . . »
قال إياسو وهو يخلع عنه ملابسه :
ـ « هناك كثير من الأشياء نفعلها تلقائياً دون أن نفكر فيها . إنهـا تشبه الى حـد كبير التنفس . . والأكـل والشـرب . . والمشي . . »

ـ « ماذا تعني بالضبط ؟؟». .
ـ « أعني إن ميتاوس يريدني صورة طبق الأصل عن جدي منليك . . . إنه يريد كل يوم أجراساً جديدة تدق . . وكنائس تقام ، ومساجد تهدم ، وحرائق تشعل . . لقد أصبح ذلك أمراً عادياً لا يثير أية غرابة . . تماماً مثلما تفكرين في السرير الذي لا يتسع إلا لإثنين . . . »

وعندما صمت قالت :
ـ « لم أستمع إلى أي شيء مما تقول ، إن فلسفتك لم أعد أستطيع هضمها . . هيا ودعنا نفكر في شيء آخر . . »

تمتم وهو يهز رأسه :
ـ « شيء آخر . . الهروب . . تريدني أن أفكر فقط فيما تفكر هي فيه . . يا وعاء الأنانية القذر . . يا مقبرة النظر . . يا نتاج الحقد الأعمى والتربية العقيمة وانحراف المبشرين . . شيء آخر ؛ أيتها الكتلة من اللحم والشحم والدم . . تتحدثين عن ذبح الأبرياء ببساطة . على أنه لو خدش أصبعك اللون المرن لملأت الدنيا نحيباً وبكاء . ولتكاثر الأطباء على بابك . . ولانهالت

برقيات الاستفسار على قصرك ولتوافد السفراء وقريناتهم ليقدموا فروض الطاعة والولاء . . . كان محمد راعياً للغنم ، وكان يأنس بالفقراء والمساكين والحائرين . . وكان يقول للطغاة الـذين حاربوه ، وقتلوا الكثيرين من رجاله . . إذهبوا فأنتم الطُّلَقَاء . . هكذا حدثني أبي . . آه أيتها المسكينة . . دعنا نفكر في شيء آخر . . بل نفكر في أنفسنا . . نقذف بها في هوان الأنانية والهروب . . . »

وجاءه صوتها :

ـ « فيم تفكر ؟؟ لقد أعددت السرير تماماً ، وضمخته بالمسك . . وأطلقت البخور . . . ألا تشم ؟؟ ثم ما رأيك في ذلك القميص الحريري الأزرق . . . »

٣

قالت « شو أرقاش » لزوجها « ميكائيل » ذات صباح :

ـ « إن ولدنا الامبراطور يعاني من محنة نفسية قاسية . . »

فرد عليها :

ـ « دعيه يا امـرأة لسوف ينضجه الألـم العظيم . . »

ـ « إنه الامبراطور ، ومن حقه أن يطلب فيجاب ، فلم كل هذا العذاب الذي يفترسه افتراساً ؟؟ »

إن ميكائيل يعلم الحقيقة المرة ، لقد تمزق ولده بين دروس المبشرين ، وإسلام أبيه المخبوء ، بين التقاليد والقيم التي عاش في رحبها في قصر جده منليك ، وبين الهمسات والتوجيهات الخفية التي حرص أبوه على أن يبثها في وجدانه ، وزاد تمزقه حدة بعد أن أوصى جده ـ الذي لم ينجب ولداً ـ أن يتسلم إياسو مقاليد الحكم في عرش الأباطرة بالحبشة ، إنه أمام الجميع ملك مسيحي يسنده رضاء القساوسة ومنشورات المطران الأكبر ، وأمام الله رجل مسلم يشعر بفداحة الأعباء التي حملتها له الاقدار . وهو بين أن

يعلن إسلامه فتثور الكنيسة ، وتموج البلاد بالفتن ، وبين البقاء ظاهرياً على عقيدته النصرانية فيحيى بوجهين ، ويتكلم بلسانين ، ويصلي في الكنيسة بطريقة تختلف تماماً عن الطريقة التي يصلي بها وحده أو مع أبيه، وليت الأمر يقف عند هذا الحد ، إن هذا التمزق الفكري والنفسي ، سينعكس أثره في تصرفاته ، وبالتالي في جماهير شعبه . . إنه مستقبل أمة تعد بالملايين ، وفي فترة تاريخية حرجة ، فهناك أول حرب عالمية على الأبواب ، تركيا والمانيا في جانب ، وانجلترا وفرنسا ومعظم الدول الغربية في جانب آخر ، والغربيون المستعمرون قد ألقوا برحالهم على شاطىء البحر الأحمر ، وعقدوا الصلات الوثيقة مع جده منليك ، ومع القساوسة ورؤوس المقاطعات ، إن الأفق من حوله يموج بعديد من التوقعات والأسرار الغامضة . ورجال الكنيسة لهم مطالب ، والطليان والفرنسيون والانجليز هم الآخرون لهم مطالب ، وشعبه ينتظر منه الكثير ، وهو نفسه يريد قاعدة صلبة يرتكز عليها كي يسير في الطريق الشائك الذي تكتنفه الظلمات ، ولم يعد خافياً على الجميع أن الامبراطور الشاب إياسو يقع تحت صراع نفسي رهيب يوشك أن يجلب له الانهيار الكامل .

قالت « شو أرقاش » ابنة منليك :

ـ « لو كنت مؤمناً حق الإيمان يا ميكائيل لاستجاب الله لك »

وأدرك محمد علي « ميكائيل » أنها تعرض بضعف عقيدته ، وأن تنصّره ما زال موضع شك ، وأنه هو الذي أورث ولده هذه البلبلة ، والتمزق.

قال ميكائيل :

- « الرب واحد يا شـو أرقاش أيتها العجوز اللئيمة . . »

- « يعلم الله أنني أحببتك من كل قلبي . وحاولت جاهدة : أن أجعل أبي منليك يعطيك كل ما تصبو اليه ، ويجعلك محل ثقته ، وهل هناك أكثر من أن يوصي بالملك لابن رجل مسلم عريق في إسلامه ؟؟ لقد كان أبي رحمه الله يحب حفيده إياسو حباً جنونياً . . لقد استطاع قبل موتـه أن يكسر مقـاومة حكـام المقاطعات ، ويقطع الطريق على اعتراض مجلس الكنائس الأعلى . . إن أبي لم يشك فيك لحظة ، أما أنت فكنت ترمق ذلك كله بعيني ذئب . . أنسيت يوم أن اعترضت على زواج ابنتنا « مالفن » من « الرأس تفري » حاكم ولاية سيدامو ؟؟ لقد كنت تفضل أن تبقى ابنتك عانساً على أن تزوجها من مسيحي متعصب حقود على حد قولك . . أكنت تريد أن تزوج حفيدة منليك وأخت إياسو لرجل مسلم ؟؟ »

قال ميكائيل :

- « لم أقصد ذلك بالضبط ، لكني لا أثق في ذلك القاسي القلب الرأس تفري ، إن في عينيه خبثاً ودهاءً مخيفين . . إنها مجرد مشاعر قوية لا أستطيع الهروب منها ، ولولا ضغط منليك ، وخوفي من المشاكل التي قد تنجم عن عدم إتمام زواج « مالفن » من « تفري » لما وافقت . . ما أكثر ما يفعل الانسان أشياء لا يرضى عنها قلبه . . »

وأقبل « إياسو » باش الوجه ، منطلق الأسارير ، وقال

وابتسامة الرضى ترتسم على شفتيه :

ـ « صباح الخير يا أمي . . صباح الخير يا أبتاه . . »

تحاملت الأم على نفسها وهبت واقفة ، والسعادة تغمر قلبها ، وهتفت :

ـ « ها أنت تضحك أخيراً . . ما أسعد قلبك يا « شو أرقاش » . . إن امبراطوري الحبيب يبسم لي . . تصور . . أن طلعتك الفاتنة تذكرني بجدك منليك . . إنك شبيه به لدرجة ملفتة للنظر » .

قهقه ميكائيل ساخراً وقال :

ـ « أنظري جيداً . . إنه صورة مني . . ألا تذكرين ؟؟ كنت تضمينه الى صدرك وهو طفل ، وتغرقين وجهه بالقبلات ، وتقولين إنه يشبهك تماماً يا ميكائيل ولهذا فأنا أحبه . . يبدو أن بصرك قد ضعف ، وحكمك على الأمور قد اختل . . »

قالت شوا أرقاش غاضبة :

ـ « لم هذا التعصب ؟؟ أحرام أن أشبهه بجده العظيم في سمته وابتسامته . . إنك تحاول قدر طاقتك أن تنكر أثري وأثر جده في وجوده . . »

ـ « لا أنكر ذلك الأثر ، ولكني لا أقبل التصورات المتعسفة ، إن ملامحه التي تشبه أبيه ، لا تعني تجاهل أمه وجده . . إنه مدين لكما بالكثير . . بوجوده أولاً . . وبهذا العرش ثانياً . . »

وصمت إياسو ، كان يستمع إلى نقاشهما الحاد ، وهو بينهما

يبحث عن شيء ينتمي إليه . . لا . . لا . . لقد استقر باله ، وبلغ مرحلة الانتماء بعد عذاب وضنى ، وما كان الانتماء لمجرد الأب والأم ، إنه ـ حسبما يعتقد إياسو ـ يرتبط بالمبدأ والعقيدة ، إن الانتماء قيمة كبرى تفوق النسب والصلات الظاهرية ، لم يعد نسبه محل شك . . إنه ابن محمد علي المسلم وابن شو أرقاش المسيحية . . ليكن . . أما الأهم من ذلك فهو الانتماء الروحي والنفسي والفكري ، فرب لقيط مجهول النسب يستشعر نسمات الراحة والرضا النفسي حين ينتمي لشيء كبير . . تلك هي المشكلة . . وهز إياسو رأسه وقال :

ـ « كان منليك جدي . . وهذه حقيقة . . ولا تزعجني أخطاؤه . . فهي له ، وحسناته أيضاً له . . إن ذلك شيء بينه وبين الله . . وميكائيل أبي سواء أكان مسلماً أو نصرانياً . إنني خلق جديد . . هذا ما أريد أن أقوله . . »

وتدخلت أمه قائلة :

ـ « وأنا ؟؟ تحدثت عن جدك وأبيك ثم أغفلتني . . »

ضمها إلى صدره في حنان بالغ وقال :

ـ « أنت أمي حبيبتي ، ما أسعد اللحظات التي أقضيها معك . . » .

فأشرق جبينها بالفرحة ، ثم تذكرت ، فدفعته في حنان قائلة :

ـ « كيف تتكلم عن أخطاء جدك ؟؟ أكانت له أخطاء . . لقد

عاش طول عمره خادماً لله ، راعياً للكنيسة ، يقضي أبهج أوقاته في ميادين القتال حتى أقام لك ذلك المجد الضخم . . »

وقع إياسو في حيرة ، حاول أن يتكلم ، ما جدوى الكلام وخاصة إذا كان سيخلِّفُ أسىً في النفس. . نفس أمه التي حملته تسعة أشهر ، والتي يجري دمها في عروقه . .

ـ « كان حب جدك لك يكاد يبلغ مرتبة العبادة . . »

ـ « أعلم ذلك . . »

ـ « فكيف يكون له أخطاء ؟ . . »

ـ « إنك تخلطين بين قضيتين . . »

ـ « كفى يا إياسو . . إنك تتجرأ على كثير من المقدسات »

قال إياسو وقد شرد ببصره إلى بعيد :

ـ « الله وحده . . هو الذي أقف في كنفه مطأطىء الرأس . كسير القلب ، ألهج بالضراعات . . إنني لا أعبد سواه . . « أقدس كلماته ورسالاته . . » و

وجاء صوت زوجة الامبراطور رخيماً مبتهجاً :

ـ « إياسو . . إياسو . . أين أنت أيها الحبيب ؟؟ »

قال إياسو بصوت خفيض :

ـ « هذه الطفلة لا تكف عن مطاردتي . . »

قالت شو أرقاش في سعادة :

ـ « إنكما تدخلان على قلبي السرور . . يا طفليّ العزيزين . . »

ثم قالت بصوت مرتفع :

ـ « إنه هنا أيتها الخبيثة الماكرة . . ألا تتركينه مع أمه ساعة . . »

وأقبلت زوجة الامبراطور تحمل في يدها مكتّوباً:

ـ « إنني أزف للجميع بشرى طيبة . . إن العمة « مالفن » والرأس « تفري » قادمان اليوم لزيارتنا . . »

وهتفت « شو أرقاش » :

ـ « مرحباً مرحباً . . لقد تشوقت إلى ابنتي مالفن كثيراً . . »

وساد الوجوم وجه الرجلين ، وتبادلا نظرات ذات معنى ، وثرثرة المرأتين لا تنقطع ، وبين الرجلين حديث صامت عاصف ، لكأن ميكائيل يقول : لشد ما أكرهه ، ولكأن إياسو يرد عليه : وأنا الآخر أمقته أشد المقت ، إنه صورة مجسدة لأطماع الكنيسة ، ومكائد المستعمرين الغربيين ، وسوط عذاب على مخالفيه في الرأي والعقيدة في المنطقة التي يحكمها . .

انتحى إياسو جانباً ومعه أبوه ، وأخذا يتجاذبان أطراف الأحاديث ، يتحدثان عن ضغط الكنيسة لاشعال نيران الحرب ، والقضاء على الإمارات الإسلامية ، وإنشاء الكنائس ، ورصد الأموال لرجال الدين ، ويتحدثان عن الحرب العالمية وما تجره من ويلاتٍ ، ذلك الصراع اللافح على الصعيد الدولي والمحلي . .

وأخيراً قال إياسو :

ـ « متى نبدأ ؟؟ »

قال الأب :

ـ « أي ولدي الامبراطور . . لا تضرب بسيفك ضربات

عشواء ، ولا تنطلق إلا من قاعدة قوية متينة ، ولا تتقدم إلا ومن حولك رجال يؤمنون بما تؤمن به . . وافتح قلبك لعبير الحقول في السهول والغابات والقرى ، وتحسس آمال الناس في كل مكان ، وكن نعم الراعي فيكونوا خير الرعية . . إن الشعب الذي يحب مليكه هو القلعة الحصينة التي يحتمي بها عندما تدلهم الخطوب . . ولا تجعل بينك وبينهم حجاباً أبداً ، ولا تنكل بخاطئهم ، واعف عن مسيئهم . . وقرب المخلصين والأتقياء . . » .

قال إياسو :

ـ « كلمات حلوة يطرب لها قلبي . . لكن متى أمزق القناع الصليبي الذي أضعه فوق وجهي ؟؟ »

وأخذا يتدارسان الموقف وأبعاده ، ويدلي الأب بتجاربه المريرة في الحياة . وأخيراً أتفقا على أن تكون البداية هي أن يخرج إياسو في جولة طويلة يجوب فيها أنحاء البلاد حتى يعرف عن كثب قضاياهم ومشاكلهم والطاقات الكامنة فيهم ، ويلتقي بهم دون حجاب ، ويحادث شيوخهم وشبابهم ، مسلمهم ومسيحيّهم ، ويمهد للإجراء الحاسم الذي سيتخذه .

٤

دقت الأجراس ، واصطف حرس الشرف على طول الطريق ، وتوافد رجال الكهنوت وعلى رأسهم المطران ، واستقبل « الرأس تفري » استقبالاً يليق بمقامه : أليس أحد حكام المقاطعات الكبيرة ، وصهر الامبراطور ، وابن الكنيسة البار ؟؟ وبعد أن انتهت مراسيم الاستقبال قصدت « مالفن » إلى أخيها إياسو وألقت بنفسها بين ذراعيه ، وهتفت من قلبها : « أيها الحبيب إياسو ، لشد ما تشوقت إليك ؟؟ » ثم هرولت إلى أبيها وأمها وزوجة أخيها ، وهي تكاد تطير من الفرح ، وأخذت ترمق جنبات القصر الامبراطوري بحنان بالغ ، لكأنما هذه الاركان ، وتلك الجدران ، وهذه التحف المتناثرة والستائر والأبسطة والخدم . . لكأنما كل هذا جزء من ذاتها ، من وجودها ، وتنفست الصعداء . وحمدت الله ، وتمتمت قائلة :

ـ «ليتني أبقى معكم هنا طول العمر »

قالت زوجة إياسو عاتبة :

ـ « وكيف تطيقين البعد عن تفري . . »

هزت رأسها في أسى وقالت :

ـ « تفري ؟؟ »

ـ « ماذا ؟؟ »

ـ « إنه لا يفكر إلا في نفسه . . لم يتزوجني بل تزوج الحكم . . »

ـ « هـذا كلام خطير يا أختاه ـ إنني أعتقد أن تفري على خلاف ما تظنين . . حاكم قوي ، مرهوب الجانب ، يثني عليه رجال الكنيسة . . »

ـ « ليس رجال الكنيسة كل شيء . . »

ـ « بل رضاهم هو المهم . . . »

* * *

قال إياسو لتفري في قاعة استقبال الضيوف :

ـ «جميل منك أن تذكرنا بهذه الزيارة . »

نظر تفري في شك ، فالعداء بينهما منذ أن كانا طالبين في المدرسة ، وما أكثر ما اختلفا في الرأي ، وفي فهم أمور الدين ، كان تفري يبدو في نظر إياسو وكأنه رجل من رجال الأعمال الجامدين ، لا يفكر إلا في الربح والخسارة ولا يقيس الأمور إلا بمقاييس ذاتية ضيقة . كان غبياً وإن كان خبيثاً دؤوباً ، وكان قاسياً فظاً وإن تظاهر بالرحمة والرقة ، وكانت الكلمات بالنسبة له لا تحمل سوى أكثر من معنى واحد ، هناك حق أو باطل ولا شيء بينهما، ورأيه نهائي ولو جانبه الصواب ، فلسفته العنف والقوة والبطش الحاسم ، يتحدث كثيراً عن السماء وأفكاره ملتصقة

بالأرض الموحلة ، ويثني على القساوسة والرهبان ولكنه يحتقرهم . وينحني لهم لا احتراماً وتقديساً ولكن ليبعث بنظراته الحادة باحثاً عن منفذ إلى نفوسهم وقلوبهم ، يحترم المستعمرين الغربيين لأنه يؤمن بالقوة ويقدسها ويجعلها فوق المبدأ والعدالة . يشك في أقرب المقربين إليه . . ثقيل الظل حتى على أصدقائه . .

وكان إياسو في نظر تفري ، شاعراً حالماً ، تؤثر فيه الأحداث الصغيرة ، يطيل التأمل ، ويحلق بروحه إلى بعيد ، ويكتظ عقله بالأمنيات ، يفلسف ضعف الآخرين ، ويلتمس لهم الأعذار ، لا يقبل الدنيا على علاتها ، ثائر دائماً ، يرى كل شيء ناقصاً ، ولا يبدو له الكمال إلا في عالم المثال ، ليست هناك حدود فاصلة بين القيم المتضاربة ، إن هناك نوعاً من التداخل والامتزاج فليس هناك شرٌ محض ، ولا خير محض إلا في عالم الأبالسة والملائكة . . . يقضي أوقاتا طويلة في التفكير بتعاسة الآخرين . . حانق دائماً ، قلق دائماً ، يبحث عن الصورة المثلى فلا يجدها . .

قال له تفري ذات مساء وهم يتلقون العلم في المدرسة :

- « لا أستطيع أن أتصورك امبراطوراً على نسق جدك منليك »

قال إياسو :

- « هو ذلك . . إن منليك شيء وإياسو شيء آخر . . »
- « لكن أيها الصديق إن للملك سمة خاصة »
- « ماذا تعني يا تفري ؟؟»
- « أعني أنه يلزمك الوقار والصلابة والحسم ، وشيء من

التعالي على الآخرين . . لأن الامبراطور خلق آخر غير باقي الناس . . »

قال إياسو مازحاً :

ـ « هل قرأت شيئاً من هذا في الأناجيل ؟؟ »
ـ « بـل قرأتـه على صفحات التجـربة . . في الحيـاة العملية . . »
ـ « ليس لدي مسلّمات يا تفري . . »
ـ « بل لك جسم رجل ، وعقل طفل ، وقلب شاعر »
ـ « وأنت ؟؟ أنت. . . . »
ـ « ماذا ؟؟ »
ـ « جلاد يا تفري »

وقهقه تفري ساخراً ، بينما توترت أعصاب إياسو ، كان يظن أن تفري سينشب فيه أظافره ، ليرد عن نفسه تلك التهمة البشعة ، لكنها ـ كما يبدو ـ لاقت استحساناً لدى تفري ، الذي قال :

ـ « جلاد لأعداء الله . . »
ـ « من هم ؟؟ »
ـ « الذين لا يؤمنون بالرب يسوع »

أخذت تلك الذكريات تنثال في رأس كل من إياسو وتفري ، ومن حين لآخر ينطق أحدهما بعبارة ترحيب أو شكر جامدة ، لا تعدو عن كونها مجاملة ضرورية ، بين صهرين ، أو بين ضيف ومضيف ، وقال تفري :

- « كيف حال الأم « شـو أرقاش » ؟

- « بخير »

- « وخالتك « زوديتو » ؟؟ »

- « إنها على أحسن ما يرام . . »

- « وزوجها « غوغسا »

- « الجميع يرحبون بمقدمك . . »

وساد الصمت برهة . قال إياسو بعدها :

- « وكيف حال شعب المقاطعة ؟ »

- « إنهم يقَدمون فروض الطاعة والولاء لامبراطورهم المفدى إياسو العظيم حفيد منليك العظيم . . »

- « يبدو أنك لا تلاقي أي نوع من المتاعب . . »

- « طبيعي أن تنشب بعض المشاكل ،وخاصة من بعض المسلمين . . أنت تعرف طريقتي . . إنني أحسم الأمور دائماً بطريقة واعية . . إن سخافات المسلمين لا تنتهي . . ما زالوا مصرين على إنشاء المساجد وتعليم اللغة العربية ، وتلقي الدروس الدينية من الوعاظ . . » .

قال إياسو :

- « ليست هذه مشاكل بالمعنى الصحيح . . »

- « معذرة مولاي الامبراطور . . إنها أمور جد خطيرة . . يجب أن يحرص مولاي على وحدة البلاد . . »

- « حرية العقيدة والرأي تدعم هذه الوحدة . . »

- « إسمح لي أن أخالفك الرأي ، كيف تكون الوحدة بين

مسلمين ومسيحيين ، بين لغة عربية وأمهرية ، بين مساجد وكنائس . بين أناجيل وقرآن ؟ ! هذه صورة مزعجة تعرض البلاد للتشتت والضياع . وهدير الحرب العالمية يصم الآذان . . إنها فترة حرجة . . »

قال إياسو وهو يكظم غيظه :

ـ «أيها الصديق تفري . . وإن رأيي على النقيض من رأيك تماماً ، إن بلادنا يجب أن تكفل حرية الجميع ، مستحيل أن يكون الناس في أي بقعة من بقع الأرض على رأي واحد . . الناس ليسوا صوراً شمسية . هناك حد أدنى من الوحدة واللقاء بين البشر ، لكن الوحدة التي تنشدها لا وجود لها في الماضي أو الحاضر . . إن اختلاف الرأي لا يعني العداء والفرقة والتمزق . . ماذا أقول أيها الصديق تفري . . إنها قضية لا تحتاج الى نقاش طويل . . » .

قال تفري ببرود بالغ :

ـ « معنى ذلك أن نفتح الطريق للفتن والاضطرابات ، فنقضي بذلك على مجد المسيحيين في بلادنا . . »

ـ « الفتن والاضطرابات شيء آخر ، ولها علاج يتفق وطبيعة كل منها . . »

قال تفري وقد رفع رأسه في تحدٍ ، وانفرجت شفتاه في اشمئزاز :

ـ « لكنها أوامر الكنيسة . . »

هز إياسو رأسه ، لقد وقع في حيرة ، أيهاجم الكنيسة ؟؟ هذا ما يريده تفري ، إذن فالكنيسة هي التي تحكم ، الكنيسة الحبشية بأفقها الضيق ، وتعصبها الفردي ، وتوصياتها التي تبدو أبعد ما تكون عن تعاليم المسيح وأناجيله . . الامبراطور إذن رمز . . آلة مسخرة في يد الأطماع الكنسية والتبشيرية . . يا لها من كارثة ! . .

وفي نبرات هادئة قال إياسو :

- « من الذي يحكم يا تفري ؟ »

- « الامبراطور . . أنت يا إياسو »

- « والكنيسة . ما دورها ؟؟»

- « توصي وترشد وتوجه . . »

أردف إياسو دون تردد :

- «حسن . . لنكن صرحاء . . أتعتقد أن هؤلاء الذين يثيرون المشاجرات في الشوارع ، ويتخاطفون النساء ، ولا يكادون يفيقون من السكر . هل هؤلاء قادرون على حسن التوجيه؟؟»

- « أعرف أيها الصديق إياسو أن بعضهم قد أساء التصرف ، لكنهم يمثلون السلطة الدينية . . السلطة الروحية العليا في البلاد ، ولهم التأثير الأكبر في جماهير الشعب . . هذه حقيقة ، لا يمكن إنكارها ، مهما كان الامر . . »

وكثعلب ماكر همس تفري :

- « ترى ألك موقف جديد مع الكنيسة ؟؟ »

هذا اللعين « تفري » يريد أن يلعب لعبته الدنسة ، أن يوقع بين القصر والكنيسة ، وفي هذه الاجواء الدنسة المظلمة يستطيع أن يثب فوق القمة ، إنني أعرفه ذلك الانتهازي المخادع ، رجل الأعمال . . صديق الانجليز والفرنسيين وبعثات التبشير . . ذلك الذي يشبع غرور رجال الكنيسة ، وينفخ في كبريائهم ،ويمرغ خديه على أعتابهم .. أفاق إياسو من أفكاره على عينين ترمقانه في دهاء ، وقال :

ـ أيها الصديق تفري . . إن المطران والامبراطور رجلان لهما غاية واحدة . . هما بالنسبة للحبشة كالذراع اليمنى والذراع اليسرى . . إن ما أقصده هو إصلاح حال الكنيسة ، والقضاء على ما في بعض رجالها من انحرافات ومساوىء ، حتى يكونوا قدوة صالحة للنّاس . . وحتى يكتب الله النصر لقواتنا . . إنني في حاجة إلى كثير من الاصلاح والتدبير في شتى مرافق حياتنا ألست معي في ذلك ؟؟ »

قال تفري وقد فشل دهاؤه :

ـ « الاصلاح مطلوب دائماً »

ـ « ولسوف أقوم بجولة كبرى في طول البلاد وعرضها لرؤية الأمور عن كثب . . وحتى نرد لك زيارتك الطيبة أيضاً في مقاطعتك، وعلى ضوء ما نلحظه من أمور ،تكون سياسة الدولة . .

قال تفري :

ـ « هذا عين الصواب . . »

* * *

٥

طفح الكيل ، واستبد الضيق «بمـالفن» . . كانت تشعر أن كابوساً ثقيلاً يجثم على صدرها ، ويكبل روحها ، إن حياتها مع تفر ي قد أصبحت مرة المذاق ، تتجرعها على الرغم منها ، لكن الى متى ترضخ لهذا الذل ، وترضى بذلك الهوان ؟ إن أتعس لحظاتها هي الأوقات التي تقضيها الى جوار تفري ، وهو قلما يخصص وقتاً خالصاً لها ، نظراته إليها ترعش جسدها ، لمساته تبعث النفور في نفسها ، ذلك الوجه الأسود المتصلب يثير لديها الكراهية . . إنه لـيس إنساناً بأية حال من الأحوال . وساورتها الشكوك ، لم تر زوجها تفري ؟ آه لم يعد ذلك خافياً على أحد . . . تزوجها لأنها حفيدة منليك وشقيقة الامبراطور إياسو ، مجرد صفقة رابحة من وجهة نظره كما يفعل التجار ورجال الأعمال ، وتجربتها معه طوال تلك السنين أثبتت أنه يظهر خلاف ما يبطن ، ويضحك وقلبه مفعم بالأحقاد ، ويرحب بالضيوف وهو يعد لهم الخناجر ، ويتملق الشعب وهو لا يطيق أن يناقشه أحد الحساب . . . صورة من الانحراف البشري التي لا تطاق . . إن

قصره يبدو لها وكأنه سجن أسود نحيف ، ورجاله وخدمه يبدون وكأنهم عيون مرصودة . لا يكشف لها عن نواياه ، ولا يفتح قلبه لها ، إنها مجرد موظفة في بلاطه تؤدي دورها كزوجة للحاكم . . إنه ليس الزوج الذي تحلم به ، ليس زوجاً على الاطلاق . . .

واجتمعت الأسرة للحفاوة بالضيف تفري ، أتت الخالة الأميرة زوديتو، وزوجها «غوغسا»، والأب ميكائيل وأسرته، والأم شو أرقاش ، وإياسو وزوجته ، وجلسوا في المساء يمرحون . ويستعيدون الذكريات والأيام الخوالي ، وتفري جالس في مكانه كالصنم الأسود يسمع ولا يتكلم إلا نادراً ، ويرقب الجلوس واحداً واحداً ، كأنه واحد من رجال التجسس لا يتحرك ولا يتكلم الا بحساب ، كان ثقيل الظل ، مقيت السمت ، إذا حاولت زوجته « مالفن » أن تأخذ حريتها في المرح والمداعبة ، سدّد اليها نظرات صامتة كوقع النار المحمي ، إنه يحاصرها ، ويفرض عليها الوقار الغبي ، والتعالي الأجوف . وأخيراً انسحب إياسو وتبعته أخته « مالفن » . وهتفت به :

- « إياسو . . إياسو . . هل تسمح لي بقضاء بعض الوقت معك ؟؟ »

- « هذا يسعدني يا أختاه . . هلمَّ الى حجرة مكتبي . . »

- « لا . . لا . . هناك في الحديقة . . إنني أشعر بالاختناق ، وأريد الهواء . . رائحة الزهور . . »

في كنف إحدى الخمائل ، وعلى مقعد خشبي نظيف جلس الأخوان ، قالت مالفن الجميلة السمراء :

ـ « إنني تعسة الحظ يا إياسو »

ـ « كيف ؟»

ومضت دون أن تجيب :

ـ « كالتائهة في بيداء موحشة بلا دليل . . وحياتي ألعن من الموت . . هل من الضروري أن نقيد أنفسنا بالسلاسل والأغلال حتى يرضى عنا الله ؟؟ »

قال مندهشاً :؟

ـ « ماذا جرى ؟؟ »

ـ « تفري لا يطاق ، وأنا لا أستطيع العودة معه . . »

ـ « تلك كارثة يا أختاه . . إن تمرد شقيقة الامبراطور على تقاليد الكنيسة وشرائعها أمر في غاية الخطورة ، وقد يحرج هذا مركز القصر ، ويثير ثائرة تفري . . »

قالت دامعة العينين :

ـ « وما شأني بكل هذا . . إنني لا أريده . . أكرهه . . إن إرغامي على العيش معه أمر مهين . . شيء لا يرضي الله . . الكنيسة لا ترى العذاب للناس ، ولا تقر القيود والنفاق إلا إذا كانت الكنيسة منحرفة لا تعرف الله . . »

هز إياسو رأسه :

ـ « آه يا بنت ميكائيل . وشقيقة إياسو . . نفس المشكلة . . نحن جيل متعب ضائع . . يبحث عن شيء أصيل يتمسك به ، يبحث عن ذاته . . مثل شعبنا تماماً . . آه لم تخبريني عن السبب الذي دفعك لكراهيته . . »

قالت محتدة :

ـ « هناك عشرات الأسباب . . لكن أليس لي الحق أن أكرهه لأن قلبي يشعر بذلك ؟ »

ـ « في دنيانا هذه لا بد أن تكون هناك أسباب ، قد تكون أسباباً مفتعلة ، لكن لا بد منها : الناس دائماً يؤكدون اعترافهم بعواطفهم إلا أنهم يريدون تبريراً آخر . . قد يكون مجرد أكاذيب وتلفيقات ، لكنهم يريدونه . . أتفهمين ؟ . »

وصدم إياسو صدمة كبرى حينما سمع أخته تقول :

ـ « أخاف أن يقتلني . . »

ـ « يقتلك أنت يا مالفن ؟؟ هل جننت ؟؟ مستحيل . . »

قالت مالفن وهي تدق الأرض بقدميها :

ـ « صدقني . . إنه يفعل ذلك دائماً . . إنه يقتل الكثيرين بالسم ، وأحياناً لا يشفى غليله إلا إذا ذبح غريمه بيده ، إنه لا يفعل ذلك بالمسلمين وحدهم ، بل بالمسيحيين أيضاً . . صدقني . . ! . . تفري يصل الى غايته عن طريق الغدر والبشاعة . . هذا الذي يدافع عن الدين ، وينحني أمام القساوسة ، وضع السم بنفسه ذات مساء لأحد القسس . لا أدري لماذا ؟؟ لو ارتكب الضحية جرماً لعولج بطريقة أخرى . . . ويتغنى بالتسامح والإخاء ، ثم يبعث برجاله ليذبحوا المسلمين كما تذبح الشياه ، وبعد ذلك يستنكر جريمته ، ويبدي أسفه واعتذاره ، ويتوعد الجناة الذين بعث بهم . . ثم ينتهي كل شيء . . . آه يا أخي . . إنني أنظر الى يديه وفمه وهو يتناول

طعامه فيخيل إلي أنها مخضبة بالدماء . . شيء مقزز أليس كذلك ؟؟؟ ماذا أقول ؟؟ أعفني . . . لكن لماذا أخفي عنك كل ذلك ؟؟ حدث ذات مرة أن صفعت جارية كانت تتجسس عليّ . . فانفجرت غاضبة وقالت كلاماً كثيراً . . فهمت منه أن لتفري حكومة خفية من الخدم والحرس والجواسيس ، الجلادين وبعض القساوسة . . إنه يتصرف وكأنه الامبراطور المنتظر . . معذرة كان لا بد أن أوضح كل شيء . . »

شرد إياسو بضع لحظات ثم قال :

- « أعرف أنه نذل خبيث . . إنه سبة في جبين المسيحية التي يعتنقها وفي جيش الحبشة التي يدعي حبها . . . إنه تلميذ قذر لميكيـافيللي . . »

قالت مالفن :

- « لا شأن لي بميكيافيللي أو غيره . . المهم ألا أعود معه . . »

قال إياسو :

- « بل ستعودين !! »

صاحت في حنق :

- « كيف ؟؟ وبأي حق ؟؟ لن أريق ذاتي وحياتي في سجن ذلك المأفون ، فليقولوا عني ملحدة . . عاصية لله . . فليقولوا ما يشاؤ ون ، لكني لن أكون أمة مسترقة . . »

نظر الى بعيد وتمتم :

- « لم يؤ ن الأوان بعد »

ـ إن اللحظة معه تساوي دهراً من العذاب . . أنتم لا تعرفون ، فأنا التي تحترق في وقدة الشقاء . . »

ـ « أعرف ذلك يا أختاه . . فقد جربته واكتويت بناره . . لكن ثقي أنه لا ينضج الإنسان الحر إلا الألم العظيم كما يقول والدنا . . »

لوحت بيدها محتجة وقالت :

ـ « . . هراء . . الألم لا يكون عظيماً ، إنه يدمر ويحرق ويذهب العقل . . إنه يتلف إنسانيتي . ومثلي العليا . . . الذين يتألمون قد يشتط بهم التفكير فينحرفون ، أو على الأقل يعتبون على الله . . الحقيقة الوحيدة الماثلة أمام أعينهم هي أنهم ضحايا يتعذبون . الثأر يأكل قلوبهم بل ويعميها . . الحقد يلوث كل شيء شريف في أعماقهم يا إياسو . . إرحم أختك يا حبيبي . . لست كالمسيح ، فأنا امرأة ضعيفة ، واهنة القوى ، مشتتة الفكر ، معذبة الروح . . . إن السماء لن ينفعها ألمي العظيم كما تسميه ، والألم لن ينضجني ، ولكنه سيحرقني ويحيلني الى رماد . . أجل الى رماد تذروه الرياح . . . »

شرد إياسو ، وأخذ يردد :

ـ « يقول محمد (ص) . . . «فطوبى للغرباء . . قيل ومن الغرباء يا رسول الله ؟ قال الذين يصلحون حين يفسد الناس . . . . » نحن غرباء يا مالفن في هذا العالم القاسي الرهيب . . وسيعود الغرباء يوماً الى مسكنهم . . الى الاستقرار النفسي والروحي . . وعندما يعودون ، فسيتحول الألم الى

نعيم ، وتورق الأرض ، وتزهر البساتين . . وينتصر الإنسان ، ويقف على الأرض حراً شريفاً ، وقلبه معلق بإرادة الله . . »

قالت في ثورة :

- « لا المسيح ولا محمد استطاعا أن يزيلا عذابي » . .

- « استغفري الله يا بلهاء . . أنت لا تعرفينهما . . لو عرفت عنهما شيئاً أصيلاً لعرفت الله ، ومن يعرف الله يمتلىء قلبه باليقين . وتشرق روحه بالحب ، وتتحول نيران العذاب الى برد وسلام ﴿ يا نارُ كوني بَرْداً وسَلَاماً على إبراهيم ﴾ . . . تلك هي الحقيقة نحن البشر كثيراً ما نخطىء السير ، ونضل الطريق لأننا لا نعرف كيف نبدأ ، لسوف نشقى وحدنا . . . فإذا آمنا أن الله الى جوارنا فاضت قلوبنا بالقوة والعزم ، وعرفنا الطريق . . . »

جففت « مـالفن » دموعها ، ورفعت وجهها الشاحب ، وهمست :

- « تريدني أن أعود »

- « أجل . . »

- « وألعق جراحي في سجن تفري ؟ »

- « الله معك . . »

- « لكن الوحدة تمزقني ، والخوف يفترسني »

- « لن تكوني وحيدة إذا دعوت الله . . »

ولعلع صوت زوجة الامبراطور بين الأشجار من جديد :

- « إياسو . . مـالفن . . أين أنتما ؟؟ »

قال إياسو وهو يحاول أن يبدد جو الكآبة الذي يثقل عليهما :

ـ « هذه الساذجة تريد أن تلتصق بي ليل نهار . . »

ـ « إنها تحبك يا إياسو »

ـ « بل تحب نفسها . . رأسها محشو بترهات وأباطيل . . »

ـ « وهل تريدها فيلسوفة ؟ »

ـ « أريدها أن تصمت . . ، إن مظهرها يوحي بالنضرة والحيوية فإذا ما تكلمت أو أبدت رأياً ، بدت دميمة شوهاء . . »

٦

سار موكب النجاشي إياسو يقطع الوهاد والتلال ، ويعبر الأنهار والجبال ، ويخترق الحقول ، ومعه نخبة من مستشاريه الكبار ، وهم كانوا من قبل مستشارين لجده منليك ، الفلاحون في القرى ـ مسلمين ومسيحيين ـ ينحرون تحت أقدامه الذبائح ، والهتاف باسمه ينطلق كالرعد ، وتطلع الشيوخ والأطفال والنساء والشباب في هيام وتقدير للامبراطور الشاب الذي لم يسفك دماً ، ولم يرهقهم بضرائب ، أو يستولي على أراضيهم ليهبها للكنيسة أو جماعات التبشير ، وكانت تعليقات الجماهير في المدن والقرى وفي أي مكان تصل إليه:

« لقد جادت علينا السماء بهذا النجاشي العادل »

« إننا نحب امبراطورنا من الأعماق »

« ليس هناك من عيب نأخذه على النجاشي سوى بطانة السوء التي تحيط به »

« هذا النجاشي يعرف الله ، والعدل والمحبة »

« نفديه بأرواحنا . . »

« عاش النجاشي العادل »

وفي إحدى المدن الكبرى ، تقدم إليه وفد من علماء المسلمين ، وبعد أن تقدموا بفروض الطاعة والولاء ، قال كبيرهم للامبراطور:

ـ « أيها النجاشي العظيم . . إن فيض كرمك قد أطمعنا فيك . . »

قال إياسو خجلاً :

ـ « إنني أؤدي واجبي نحو شعبي ، فأنا ما تسلمت مقاليد الأمور إلا لأحقق للجميع آمالهم في العدل والحرية والرخاء ، ما جئت طاغية جلاداً ، بل داعياً للخير والسلام . . »

قال كبير الوفد :

ـ « أطال الله بقاء الامبراطور ، وحقق على يديه الآمال ، وأعز به الأمة ، وفرّج به الغمة . . »

هتف إياسو :

ـ « ما هي مطالبكم ؟؟ »

ـ « السماح لنا ببناء مسجد في المدينة ، كي يستطيع المسلمون أن يؤدوا فيه فرائض الصلوات ، ودروس الدين ، فمنذ أن هدمت مساجدنا ، وقامت على أنقاضها الكنائس ، ونحن لا نستطيع أن نجد مسجداً نأوي فيه الى الله . . »

قال إياسو :

- « لا اعتراض على إقامة بيوت الله سواء أكانت للمسلمين أو المسيحيين . . فلتلهج الألسنة باسم الله سواء أكان العابدون مسيحيين أو مسلمين . . »

ومال عليه أحد المستشارين وهمس في أذنه :

- « سيدي الامبراطور . . إنها سابقة خطيرة »

قال إياسو :

- « وماذا في ذلك ؟؟ »

- « ستثير علينا نقمة الكنيسة ، وتؤلب الرأي العام المسيحي ، لقد درج آباؤك وأجدادك على غير ذلك . . »

ووثب الى جواره أحد القساوسة فقال :

- « مولاي : إن المطران ميتاوس لن يرضيه هذا التصرف . . ، إن رسالتك الأولى كنجاشي للحبشة هي الحفاظ على الدين المسيحي ، والقضاء على ما عداه من الأديان ، وكل ما عدا ذلك فهو واجبات ثانوية على الامبراطور : إنك بذلك يا سيدي الامبراطور تخرق المخطط الذي رسمته الأجيال المسيحية ، وحافظ عليه مجلس الكنائس الأعلى ، وأيدته الدول الأوربية الصديقة . . »

أشاح إياسو بوجهه، وبدا الاحتقان ظاهراً في عينيه، وقال مخاطباً الواقفين على اختلاف عقائدهم وتصوراتهم :

- « يا أبناء شعبنا العظيم . . إنني أعلن بكل قوة وإيمان ، أن العهد الحاضر يحمي حرية العقيدة ، ويحارب العنف والاضطهاد

العنصري أو الديني ، ولا يرغم أحداً على اعتناق دين غير دينه ، ويتيح الفرصة لبناء الكنائس والمساجد ، ويفتح الطريق أمام كل الثقافات الأصيلة . إن شعبنا بكل طوائفه وعقائده يجب أن يعبر عن نفسه تعبيراً واعياً مخلصاً بعيداً عن العنف والصراع الدموي والتعسف . لن تستطيع أية قوة أن تطرد فلاحاً من أرضه ، أو تخلي قرى بأكملها لتسليمها للمبشرين أو ذوي النفوذ . . . إن نظرتنا للأجانب هي نظرتنا الى ضيوف يجب أن يراعوا أصول الضيافة وتقاليدها العريقة ، دون تدخل في سياستنا الداخلية والخارجية وشؤوننا الخاصة . .

وساد هرج ومرج ، وانطلقت الحناجر هاتفة معبرة عن الرضا التام ، والتأييد المطلق ، فيما جمد المستشارون والقساوسة في أماكنهم ، قد أخذتهم المباغتة ، وألجمتهم الحجة ، ووضوح الاتجاه وأصالته وأشار الامبراطور بيده كي يصيخوا السمع :

ـ « يا أبناء شعبنا العظيم . . لن يزج ببريء في السجون بعد اليوم ، ولن يراق دم بغير ذنب ، ولن تفرض ضرائب جديدة بدون مبرر قوي ، ولن نرحم أي مثير للفتنة مهما كانت سلطته . . إن القانون يجب أن يحمي الضعفاء ، ويجابه طغيان الأقوياء . . »

(هدير وهتاف وتأييد تام . .)

وعاد إياسو يقول :

ـ «إن مؤسسات الدولة الدينية والمدنية والسياسية يجب أن يكون لها حدود مرسومة ، وخطة واضحة ، وسياسة سليمة لا تحيد عنها ، وعلى الشعب أن يؤدي دوره الى جانب الامبراطور . . إن

الامبراطور وحده لا يستطيع أن يفعل شيئاً ، أنتم القادرون على تحقيق الآمال ، والحفاظ على مبادئنا التي اعتنقناها . . ويجب أن يكون الجميع على استعداد تام لبذل كل الجهود لانجاح سياستنا الجديدة . . ولسوف تصدر في الأيام القادمة بعض القرارات الهامة لوضع هذه السياسة موضع التنفيذ . . »

* * *

اهتزت البلاد من أقصاها الى أقصاها ، وحار المستشارون في أمرهم ، فمن قائل : إن الامبراطور الشاب ماكر خبيث ، يجيد الحديث المعسول حتى يكتسب محبة الشعب ، ويحظى بتأييده ، ويمتص تمرده ، ثم يضرب بعد ذلك بيد من حديد ، حتى تدين له البلاد ، ويفعل ما يريد بعد ذلك كحاكم مطلق اليدين يملي إرادته بالطريقة التي ترضي قصره ورجال كنيسته .وآخر يقول : إنني أتوجس خيفة من هذا الاتجاه الخطر ، لقد كان الامبراطور يخطب في انفعال ، لم يبد عليه أنه يمثل أو يفتعل الحماس ، وهز أحد القساوسة رأسه ، وقال : إن الأمر أخطر مما تظنون . . إن إياسو هو ابن ميكائيل حاكم « وللو » . . أعني ابن محمد علي المسلم المتنصر . . إن دماء الكفر تسري في دمه . . أيها الأصدقاء نحن أمام أكبر تحد في تاريخ الحبشة ، نحن لا ندري بما يدين هذا الرجل أبالمسيحية أم بالإسلام ؟ إن الشائعات تحوم حول أبيه يزعمون أنه يخفي إسلامه . . يجب أن نرسل تقريراً مفصلاً الى « الأنبا ميتاوس » . وقال مستشار آخر : « لا يصح أن نتعجل الأمر ، فقد يكون للأمبراطور فلسفة تسامحية بريئة المقصد ، لا يقصد من ورائها سوى الأمن والاستقرار ، حتى تلتئم الوحدة

الشعبية ، وتتاح الفرصة للثروة القومية كي تنمو وتزدهر ، بعد أن قاست بلادنا الكثير من الفتن والاضطرابات . . إن مصلحة الدولة العليا فوق كل اعتبار » فرد القس : «بل إن العقيدة الدينية فوق كل اعتبار » ، فرد عليه الرجل :

ـ « إنهما شيء واحد أيها الصديق . . ومصلحة البشر لا تتعارض مع وحي السماء، تلك في رأيي حقيقة بديهية »

قال القس :

ـ « هذا تصور خيالي متعسف ، إذا ضل البشر الطريق ، واضطربت مقاييسهم ، وضعف الوازع الديني لديهم ، فلسوف يحدث حتماً تعارض بين الدين والمصلحة العليا . . »

ـ « سيدي القس : إن اضطراب المقاييس والأفكار في نظرك ، قد يكون شيئاً آخر في نظر الآخرين ، ومن ثم فلا يمكن إصدار حكم صادق على أمر من الأمور إلا إذا اتسم تفكيرنا بالحياد والموضوعية . . وأنا لا أرى في كلام الامبراطور خطراً يذكر إلا إذا اعتبرنا أن المساس ببعض الامتيازات والسلطات الخاصة أمراً خطيراً . . »

واجتمع مجلس الكنائس الأعلى ، وتحركت جبهات الاستعمار الأوربي ، وساد القلق دوائر خاصة تخاف على امتيازاتها ومصالحها ، وخاصة عندما صدر مرسوم امبراطوري بالاستغناء عن المستشارين القدامى ، واختيار عدد آخر من المستشارين الجدد ، وبعد أن قرر الامبراطور عدم صرف أية إضافات أو إعانات لميزانية الكنائس والنشاط الديني إلا بعد تبيان

أوجه الصرف وتقدير ضرورتها .

وكان من المستبعد أن تمضي أمور الامبراطور هينة ، دون أن تقام في وجهه العقبات ، أو ترتكب الحماقات ، ففي ليلة مظلمة بينما كان الامبراطور يقضي ليلة في بيت متواضع قائم على أحد السفوح سمع هرجاً وضجة كبرى . أفاق من نومه ، وهرول نحو الباب ، وصاح بأحد الحراس :

- « ماذا جرى ؟؟ »

- « مولاي الامبراطور . . معذرة يجب أن تأوي فوراً الى فراشك إن الظلام دامس . ونحن لا نعرف من أي اتجاه يأتي الخطر . . »

قال الامبراطور بصوت قوي حاسم :

- « أشعلوا القناديل . . وابعثوا بكوكبة من رجالنا يكتشفوا المنطقة . . ماذا جرى ؟؟ »

وساد الصمت عندما رأى الامبراطور عشرة من الجنود يجرون أحد الرجال الملثمين . ينطق الشر في عينيه، قال الامبراطور :

- « ما هذا ؟؟ »

- « غادر أراد أن يرتكب إثماً كبيراً . . »

وهنا قال الرجل المقبوض عليه :

- « جئت لقتلك . . إن الامبراطور الذي يسمح ببناء المساجد إنما هو شيطان كافر ليس له عقوبة سوى القتل . . لست آسفاً على ما كنت أنتويه ، وإنما أسفي لأنني لم أؤ دِ المهمة المقدسة .

وهتف الامبراطور :

- « دعوه . فكوا وثاقه . اتركوه لي . . »

ذهل الجاني ، وتدلى فكه الأسفل ، « يريد الامبراطور أن ينفرد بي ، ثم يذبحني بيديه . جزاء ما عقدت عليه العزم »

- « أيها الامبراطور . . أنا لا أخاف الموت . . لقد فعلت ما فعلت دفاعاً عن الدين والشرف . . قطعت التلال والوديان . وعبرت البرك والغابات . . كنت سعيداً غاية السعادة . . أجل . . من أجل الدين والشرف . . »

قال إياسو :

- « أيها الرجل ألم تقرأ في الانجيل « الله محبة » « ب . . هه »

- « لم أقرأ في الانجيل . ولكني سمعت نصائح القساوسة . . والإنجيل لا دخل له في ذلك . كل ما أعرفه أنك تحب المسلمين، وتبني المساجد ، ولا تعمل لنصرة المسيحية ونشرها . . ليست المحبة أن تترك الكفر يستشري ، أو تكتم صوت الأجراس . . »

وهز إياسو رأسه وقال :

- « خذوه حتى الصباح . . »

وسرى النبأ في كل مكان ، وهدرت جموع الشعب غيظاً وحنقاً ، وطالبت بتسليمها المجرم كي توقع عليه العقاب الذي يستحقه بنفسها ، وهكذا وجد إياسو نفسه في وضع لا يسمح له بالتخفي بعد اليوم ، يجب أن يعلن على الملأ إسلامه . . ولو كان

ثمن ذلك أن يضحي بعرشه وبحياته . . . لن يسجن نفسه وفكره في سجن الخوف والاختفاء بعد اليوم ، لن يمضي في نفس الطريق الذي مضى فيه أبوه . .

إن إياسو غير ميكائيل . . غير محمد علي . .

٧

بزغت ابتسامات على شفاه المساكين ، ونفض المعذبون عن كواهلهم أعباء الأسى والخوف ، ورفع المصلون في أنحاء الحبشة أياديهم يشكرون الله ، ويدعون أحر الدعاء أن يحمي الله الامبراطور الشاب ويقيه شر الغدر والخديعة . وفاضت المآذن بالتكبير والتهليل . وانتصرت إرادة الله . . أيها الصابرون لتجنوا ثمار صبركم ورضاكم بقضاء الله . . هكذا كان يقول لسان الحال . لقد أعلن إياسو إسلامه ، وأنه ينتمي الى أصل عربي يمت بصلة لنبي الإسلام . ولبس العمامة ، وارتدى الـزي الاسلامي المناسب لذلك العصر ، وارتفع علم الحبشة في الآفاق مرفرفاً بعد أن كتبت عليه عبارة « لا إلَه إلا الله محمد رسول الله » ، وأعلن إياسو للجميع أنه قد اختار العقيدة التي اقتنع بها فكره ، ومال إليها قلبه ، وأن المسيحيين والمسلمين برغم ما حدث إخوة لا فرق بينهما . وأن الجميع على اختلاف مللهم ، ونحلهم سيجدون لديه العدل والمحبة والرعاية الكاملة، فعقيدة كل إنسان أمر يخصه ، ولن تنعكس على شتى أفراد الرعية الا

بالخير والحب ، فلينطلق الآذان في المساجد ، ولتدق الأجراس في الكنائس ، فالرب واحد ، وغاية الأديان إسعاد البشر ، وتقويم أخلاقهم والخضوع لله وحده وسيادة القانون والإخاء والمساواة ، دونما تعصب أو إرهاب أو استغلال ، ودون إراقةٍ لدماء البشر .

* * *

قال ميتاوس المطران الأكبر :

ـ « هذا المرتد خان الله وخان الشعب . . »

قال أحد القساوسة :

ـ « لقد وجب قتله ، لماذا لا نصدر بياناً بعزله . . »

قال ميتاوس :

ـ « كيف نطلب من الشعب أن يقتل الرجل الذي يدعو الى الحب والإخاء والحريات . لقد رفض أن يوقع إياسو على الحكم بإعدام الرجل الذي حاول قتله ، أما العزل فنحن لا نستطيعه ، الضعفاء لا يعزلون الأقوياء ، إن أي قرار من هذا القبيل سخف وقصر نظر ، التغيير لا يفرضه إلا مركز القوة ، لقد كانت قوتنا في عهد منليك نابعة من إيمانه بمخططاتنا ، وانصياعه لآرائنا ، أما الوضع الآن فهو يختلف تمام الاختلاف ، فالمسلمون قد انتعشت روحهم المعنوية ، وهم على استعداد أن يبذلوا دماءهم فداءً لإياسو ، لأنه أملهم المرتقب ، ثم إن لديهم الإمكانات التي تكفل لهم النصر ، أما المسيحيون فقد استجاب عدد كبير منهم لاتجاهات إياسو التحررية والإنسانية . . والوثنيون يكرهوننا ، بل إن أعداداً كبيرة منهم أخذوا يعتنقون الإسلام . . فلم يبق أمامنا إلا الانتظار وانتهاز الفرص ، لم يئن الأوان بعد لكي نضرب

ضربتنا . . إن الفرنسيين والإنجليز على استعداد للتعاون معنا ، وبعض الرؤوس ـ حكام المقاطعات ـ هم الآخرون لن يدخروا وسعاً في شق عصا الطاعة على إياسو والقضاء عليه . . وأملنا كبير في الرأس« تفري » إنه صهر الامبراطور إياسو ، لكن « تفري » على استعداد لأن يشنق أباه إذا خان السيد المسيح . . »

ـ « لن نستطيع الصبر . . إني أكاد أجن . . الموت لهذا الخائن . . كيف يجرؤ على إعلان إسلامه . . إن تولي السلطة في الحبشة لا يصح أن يكون لمسلم . . . هذا عار الأبد ، وسبة الأجيال ، نحن في حاجة الى منليك جديد أو تيودورس آخر . . »

قال ميتاوس :

ـ «ليس لدي ما أضيفه . . الوقت لم يحن بعد » .

قال أحد الجالسين :

ـ « ولماذا عقدنا الاجتماع إذن ؟؟ ألكي تقول لنا أن إياسو في مركز القوة ، وأننا ضعفاء ، وأن الشعب يحبه . . لكأنما جئت هنا يا سيدي المطران لتؤكد لنا أن الهزيمة قد حلت بنا . . »

قال ميتاوس :

ـ « لا أقول ذلك ، بالضبط ، إن الصبر لا يعني الاستسلام ، واتاحة الفرصة للتدبر لا يعني الهزيمة ، إن حلفاءنا الغربيين مشغولون بتركيا والمانيا ، والحرب قد شملت رقعة كبيرة من العالم ، ومثل هذه القضايا الخطيرة يجب أن تعالج بحذر ، وبحساب دقيق ، فإذا ما واجهنا إياسو في معركة مكشوفة ،

وخسرناها ، فقد سقطت الحبشة إلى الأبد في أيدي المسلمين ، إن هذا الشاب إياسو عبقري متوهج الحماس ، لكن فيه نقطة ضعف خطيرة . . »

رد الجميع قائلين :

- « ما هي . . »

- « طيبته وصراحته . . »

- « كيف ؟؟ »

- « ومن هنا نستطيع الكشف عن نواياه ومخططاته ، وضربه في اللحظة الحاسمة ، لقد استطعت إقناع زوجته بالانحراف الخطير الذي انزلق إليه زوجها الامبراطور . . والآن هي عين لنا هناك . . إنها تحبه . . لكنها تحب دينها ، وهي تحاول التوفيق بين هذين الاتجاهين . . إنها تتمزق ، ولكني أفهمتها أننا لانريد سوى إصلاحه ، وإعادته إلى طريق المسيحية ، وسنحميه بأرواحنا ، ولن نرتضي امبراطوراً غيره . وقد صدقت وارتاح بالها ، وأنا على اتصال دائم بها . . وأمه « شو» العجوز ، لم تعد ذات نفع يذكر . . اما أبوه ميكائيل فهو الشر المستطير . . إن نكبتنا قد تولدت من أفكار هذا الرجل المتنصر الذي لا شك في أنه يخفي إسلامه . . »

وخرج الاب ميتاوس من الاجتماع ، ودوي هائل يطن في رأسه ، إن الهزيمة المعنوية تثقل على روحه ، وآذان المؤذنين يقلق مضجعه ، إن في حجرته الخاصة عشرات التقارير الواردة من أنحاء البلاد ، وكذلك الواردة من قناصل الدول الأوروبية وخاصة

فرنسا وانجلترا . . وإيطاليا أيضاً ، الكل مجمع على خطورة الأمر ، والكل مجمع على خطورة إياسو بالنسبة لمستقبل الحركة الصليبية في الحبشة ، وبالنسبة للأوضاع العالمية التي تهزها الحرب هزّاً عنيفاً . .

«آه . . الرأس « تفري » هو الأمل المنشود . . إن الأسلحة الآن تتدفق على مقاطعته ، وإعداد الجنود يجري سرّاً ، والخبراء الأجانب يبذلون الجهد الجهيد لانماء قواته المسلحة . . وإياسو لا يؤمن بأن الطعنة قد تأتيه من زوج أخته مالفـن ، ورفيق الدراسة . . ذاك الرجل الصامت الجامد الملامح ، المحدود الذكاء ، الذي يمتلىء قلبه بغموض وأسرار مخيفة . . لكنها لن تصل الى درجة الغدر بشقيق زوجته الامبراطور إياسو الذي تولى الملك بطريقة شرعية ، مدعمة بتأييد شعبي واسع النطاق . . أجل الرأس تفري هو الأمل المنشود . . هذا العبد المطيع لأوامر الكنيسة وطقوسها وأفكارها . . والذي يغمض عينيه عن مهازل بعض رجال الدين وانحرافهم . . لسوف يأتي غداً . . »

وعندما قدم « تفري » سراً الى « أديس أبابا » ذات مساء ، استقبله ميتاوس قائلاً :

ـ « أنت مبعوث العناية الإلّهية . . »
ـ « جئت أروي الأرض بدموعي ندماً على ما حدث . . » .
ـ « لا تبك من أجل ذنب أتاه غيرك » .
ـ « إنني أيها المطران العظيم على أتم استعداد لأن أحمل الصليب وأتعذب وأموت فداء للمساكين . . »

قال ميتاوس في إصرار :

- « بل لتحمل سيفك ، وتجتث أساس الفساد ، وتشفي جراح المصدومين . . لن تجدي الدموع ، فالطريق لا يمكن قطعها ، وبلوغ نهايتها الا على أشلاء الكافرين . . »

قال تفري في نبرات واضحة هادئة :

- « لقد عاهدت الله أن آخذ العرش وأحمله لسدنة الكنيسة كي تفعل به ما تشاء ، إن دوري لن يخرج عن كونه دور جندي يؤدي واجبه باستماتة ، ثم يعود من حيث أتى مرتاح البال والضمير ، هانىء الذكريات ، يصلي للمسيح شكراً . . ولا شيء غير ذلك »

ولم يغب عن ذهن تفري معنى العبارة التي قالها ميتاوس بعدئذ :

- « إن العرش جدير بمن يحميه ، ويحفظ له كرامته وصبغته الدينية أيها الصديق تفري . . »

وأخذ الرجلان يبحثان الموضوع من كل نواحيه ، ويقلبان أوجه الرأي فيه ، ويرويان الاتصالات الجارية بينهما وبين قناصل الدول الأوربية الحليفة وممثليها ، والإعدادات المتصلة للمعركة القادمة ، والوقت المناسب لإشعال نيران الحرب ، وبعد أن استقر قرارهماعلى نقاط محددة قال ميتاوس :

- « ومتى ترحل ؟؟ الليلة ؟؟ »

قال تفري في خبث :

- « هل من اللائق أن أكـون في العاصمـة ولا أزور صهري ؟؟ »

قال ميتاوس في دهشة :

- « إياسو ؟؟ »

- « أجل . . إياسو . . ألا ترى أنه من الواجب أن أقدم له ولائي ، وتأكيد ثقته بي ؟؟ » .

- « تفري !! أنت طاقة هائلة من الذكاء والفطنة . . يجب أن تأتي الضربة وهو مطمئن حالم ، يهيم بين السحب والشعر ، والمثل العليا ، وآبائه الأطهار من بني قريش . . »

وسارت فترة صمت ، قال ميتاوس بعدها :

- « إن عيبك الوحيد ، هو زواجك من أخته «مالفن» . . »

ضحك تفري ضحكة وقورة وقال :

- « بل إنها ميزة . . وفائدة كبرى . أكان يمكن أن أدخل قصره وأجوس خلاله كفرد من أفراد الأسرة ، وأرصد له العيون إن لم أكن زوج « مـالفن » ، ثم من تكون مـالفن ؟؟ إنها مجرد وسيلة ، تؤدي دورها المرسوم منذ زمن بعيد دون أن تشعر . لا يمكن أن يتصور أحد أن الضربة قد تأتي الامبراطور من زوج أخته . . سيدي المطران . إن مـالفن لا شيء . . لقد وهبنا الله حسن التبرير ، وصدق التفكير ، لأننا جنوده وأبناؤه . . وحماة الكنيسة وأهدافها . . »

* * *

كانت زيارة تفري مفاجئة ، وبدا أن إياسو لم يكن على

استعداد لها في هذه الظروف الحرجة ، لقد شعر إياسو بالضيق والاضطراب ، إن رجلين على طرفي نقيض في العقيدة والرأي والسلوك يلتقيان ، لا تربطهما غير أواصر المصاهرة ، ونظام الدولة ، وبين قلبيهما متاهات تضل فيهـا العقول ، وتغشى الأبصار ، وإياسو يكره النفاق والمداراة ، غير أن تفري أدرك كل ذلك قبل أن يأتي ، ومن ثم قال لإياسو :

ـ « عفواً سيدي الامبراطور ، على الرغم من أنني مسيحي متمسك بدينه ، وأنت مسلم متشبث بإسلامه ؟ إلا أن هذا لا يفسد ما بيننا من ود وصلة عائلية وطيدة . . إن تقبل الشعب الحبشي للحرية العقائدية التي رفعت لواءها قد أثلج صدري ، ودلَّ على وعي شعبي رشيد ، والدين مسألة خاصة لا تؤثر في علاقات الأسرة ، ونظام الحكم ، إنني أعرف أن الكنيسة قد تضايقت بعض الشيء ؛ وهذا أمر طبيعي بالنسبة للمتحمسين من رجال الدين ، ولكنه بالنسبة للمثقفين المنفتحي العقول مثلي ومثلك أمر بسيط غاية البساطة ، إن ما يهمنا هو استقرار الأمور في البلاد ، ولمّ الشمل ، ورفاهية الأمة ، وهذا هو غاية كل حاكم رشيد ، واجتماعنا على هذه المعاني يبدد الكثير من القلق وسوء الظن وأوهام الفتن . . »

وقال إياسو وقد انطلقت أساريره :

ـ « أتؤمن بذلك يا « تفري ؟؟ »

ـ « أعمق الإيمان يا سيدي الامبراطور»

ـ « لشد ما تغيرت !! »

ـ « إن الخبرات وطول التجارب تعلمنا الكثير ، وخاصة في ذلك العالم الذي يموج بالحروب والاضطرابات . . . والحقيقة يا سيدي الامبراطور أنه تغير طفيف ، فما زلت تفري الذي يؤمن أشد الإيمان بعقيدته المسيحية ، لكني لا أرى في ذلك تعارضاً مع نهوضنا معاً بأعباء الواجب الوطني . . والشعب كله بشتى طوائفه يرى مثل هذا الرأي ، على الأقل في المقاطعة التي أحكمها . . لن أخدعك يا سيدي . . لقد حزنت عندما أعلنت إسلامك : لكني سرعان ما أدركت الحقيقة ، فهدأ خاطري واطمأن بالي ، ولعل قلقي كان نابعاً من خوفي . . أعني كنت أخاف أن تنقلب على المسيحيين فتبيدهم . . لكن اتضاح الأمور قد ألغى هذا القلق ،وقضى على تلك المخاوف والشكوك ، لقد أثبتت الأيام أنك أكبر من هذه التعصبات المقيتة . . معذرة لقد ظن البعض أنك ستثأر لما لاقاه قوم أبيك في « وللو » عندما دهمها جـدك منليك . . »

قال إياسو :

ـ « لشد ما تعجبني صراحتك يا تفري !! إن الإنسان المؤمن القوي الإيمان يجب ألا يغرق نفسه في مستنقعات الحقد والأنانية ، أو يرمي بنفسه في حمأة الثأر الأعمى ، فيطيح بالظالم والمظلوم . كان جدي منليك مسيحياً ، وكان أبي مسلماً ، وكانت أمي مسيحية . . إنها إرادة الله . . ويسعدني أن أحمل في قلبي نفحات الرضى من عيسى ومحمد . . إنني كمسلم الآن أؤمن بعيسى وبجميع الأنبياء . . إن الجميع أهلي وشعبي وأصدقائي سواء المسيحي منهم والمسلم . . إني أرى في نفسي ـ دون

غرور - رمزاً لهذا اللقاء الأخوي بين الأديان . . »

اتسعت ابتسامة تفري وقال :

- « ما أروع كلماتك يا مولاي !! »

- « لأنها صادرة من قلبي يا تفري . . »

- « حفظك الله ونصرك . . »

وحرص تفري على أن يشيع في جميع الأنحاء أنه أتى لإعلان ولائه للامبراطور ، وعلى الرغم من أن تلك الأنباء قد أقلقت رجال الكنيسة وسدنتها ، إلا أن ميتاوس ابتسم في خبث وقال :

- « أيها الداهية تفري . . لا شك أنك رجل الأقدار المرتقب . . إن عقلك الخبيث يستطيع أن يمسك بزمام الأمور في الحبشة لعشرات السنين . . لقد رضيت عنك الكنيسة ورضي عنك الحلفاء الغربيون . . وهذا كسب لنصف المعركة مع ذلك الساذج الأبله إياسو . . . »

٨

عاد الامبراطور إياسو فجأة ذات ليلة في غير الموعد المعروف ، ولم يجد زوجته بالقصر ، سأل أمه « شو أرقاش » فلم يجد لديها ما يشفي تساؤله ، واستفسر من الوصيفات ، فلم تهده إحداهن ، غير أن بعض رجال الحرس قال : إن الامبراطورة قد غادرت الباب الخلفي للقصر ومعها خادمة وحارس ، ولا يعرف بعد ذلك أين ذهبت على وجه التأكيد .

ـ « يا للكارثة . . إذن فقد صدق ما يزعمون . . كنت على يقين أنها امرأة قصيرة النظر ، فارغة القلب . أيمكن أن يكون هناك رجل آخر ؟؟ » اشتط به الشك ، ونازعته الهواجس ، وانتفض جسده من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، وشعر بلفح كالنار المجنونة يحرق أمنه وسعادته ، نعم هي ليست المرأة المثلى التي كان يحلم بها ، وهي لا تملأ حياته ، ولا تروي لهفات قلبه ، ومع ذلك فقد رضي بها ، وأغدق عليها ما يستطيع رجلٍ في مركزه وعدله وذكائه أن يغدقه على امرأة ، حاول جاهداً أن يشبع

تطلعاتها ، ويملأ فراغ حياتها ، وإن ساد علاقته بها فتور وضيق في بعض الأوقات ، وأياً كان الأمر ، فمن المحزن أن تفكر زوجته في رجل آخر ، كأنْ تترك القصر - وهي زوجة الامبراطور - دون إذن منه ، ماذا يقول الناس ؟؟ « أفي الوقت الذي أعلن فيه اسلامي ، وأخلص عقيدتي من أدران الزيغ والشرك . أفي مثل هذا الوقت تهوي زوجتي الى الحضيض ، وتتمرغ في الأوحال ؟؟ » وفكر إيباسو في بداية الأمر أن يكظم أساه ، ويأوي الى حجرته صامتاً مكتئباً حتى تعود زوجته ، لأن أي تحرك قد يجلب عليه الفضيحة ، وسرعان ما يستغلها الأعداء ، ويتهامسون بها في كل مكان ، فتزلزل قوائم عرش ، وتلصق بصفحته البيضاء النقية عاراً أيّ عار ، إن الأعداء كثيرون ولن يتركوا مثل هذه الفرصة النادرة دون أن يستغلوها أبشع استغلال ، وهكذا وجد الامبراطور نفسه في مأزق حرج لا يدري كيف يتصرف إزاءه .

وبينما كان يهرول قاصداً حجرته الخاصة ، سمع وصيفة زوجته تقول :

- « مولاي » . . . أدار اليها وجهاً شاحباً وقال :

- «ماذا تريدين؟؟»

- «من الخيانة أن أخفي عليك شيئاً هاماً يرتبط باسمك الكبير »

ودق قلبه في عنف ، واضطربت مفاصله :

- « تكلمي . . ماذا تريدين أن تقولي ؟ »

- « إن مولاتي قد ذهبت الى قصر صغير ملاصق للكنيسة الكبيرة في وسط المدينة . . هذا كل ما أعلمه . . . »

هذه نغصه جديدة ، لقد كان يعلم فقط أن زوجته تغادر القصر من آن لآخر أثناء غيابه ، ولم تزد المعلومات الخاصة التي حصل عليها أكثر من ذلك . وها هي الوصيفة تحدد بدقة المكان الذي تتجه اليه . لن ينتظر أكثر من ذلك ، لابد أن يقطع الشك باليقين ، لا بد أن يداهمها في وكر الشيطان ، إن إياسو يكره أن يبقى الأمر هكذا معلقاً دون أبعاد واضحة ، ولن يحيل قلبه مرة أخرى الى مزرعة للشك القاتل .

والتفت الى الوصيفة قائلاً :

- « ماذا تفعل هناك ؟ »

- « لا أدري يا مولاي . . »

- « كوني صريحة . . أهناك رجل آخر ؟؟ »

بهتت الوصيفة ، وهتفت في خوف :

- « هذا لم يخطر على بالي يا مولاي ، إنني لا أدري حقيقة الأمر ولا أعرف أكثر من ذلك ، مستحيل أن يتطور الأمر الى هذا الحد . . . »

- « وما دليلك ؟؟ »

- « تصوُّري الخاص . . إن مولاتي تحبك أعمق الحب »

- « أشكرك »

لم يضع وقته سدى ، هتف بسائق عربته ، وهرول إليها تحت جنح الظلام ، وانطلقت العربة دون أن يحيطها الحرس الامبراطوري ، أو تدق الطبول ، أو تخلى الشوارع ، كان قلبه يلهث . وعلى الرغم من إسراع السائق الا إنه شعر إن الوقت يمر

ببطء ثقيل . وأن الدنيا في عينيه أمست ضيقة مقيتة ، إنها طعنة لم يكن يتوقعها في هذا الوقت بالذات . . ومع ذلك ألا يمكن أن يكون الأمر كله مجرد حماقة بريئة لا ضرر منها ، ولا خطورة تكمن فيها ؟؟ إنه يدعو الله من أعماق قلبه ألا تتحقق هواجس وشكوكه ، وأن تكون زوجته بريئة طاهرة لم تقترف إثماً ، وبدت له هذه الأمنية وكأنها أمل كبير عسير التحقيق يرتبط بوجوده ، وأنه على استعداد لأن يقدم على أية تضحية وأن يدفع أي ثمن مقابل تحقق هذه الأمنية الغالية . .

ـ « مولاي ها هي الكنيسة . . وها هو القصر » .

ـ « حسناً . . لتبعد عن هذا المكان بعد أن أغادر العربة ، ولتبق في انتظاري حتى أخرج . . لا تكلم أحداً . . أتفهمني ؟؟ »

حينما طرق باب القصر ، فوجيء بأحد رجال حرسه يفتح له الباب ، وصاح الجندي في ذعر:

ـ « مولاي »

ـ « ما الذي أتى بك إلى هنا ؟ »

ـ « أنا . . أنا . . مولاي . . »

ثم جثا على ركبته ضارعاً .

ـ « لتغفر لي يا مولاي . . إنها خطيئة كبرى . . »

جذبه الامبراطور من كتفه حتى وقف ، ثم هزه في عنف وقال :

ـ « الامبراطورة . . أين هي ؟؟ »

- « إنها هنا يا مولاي . . بالداخل مع . . »

- « مع من ؟؟ تكلم . . »

- « مع المطران الأنبـا متياوس »

قال الامبراطور في دهشة :

- « ميتاوس ؟ كيف ؟؟ ولماذا ؟؟ »

وهرول إياسو الى الداخل ممسكا بالحارس :

- « تلك هي الحجرة يا مولاي . . »

طرق الباب في عنف ، ثم دفعه . .

كان المطران يجلس في صدر الغرفة يغمره الضوء ، وعلى مسافة مترين تجلس الامبراطورة الشابة ، ورجل ثالث ـ أحد القساوسة . ولعله سكريتر المطران يجلس على يمين سيده .

هب المطران شاحب الوجه مرتعش الأصابع . وتمتم في صوت خفيض يوحي بالخوف والقلق والحيرة « مولاي . . » بينما صرختِ الامبراطورة في رعب «إياسـو».

قال المطرانِ مصطنعاً الابتسام :

- « إنه لشرف عظيم أن يشاركنـا الامبراطـور صلاتنـا ودروسنا . . »

قال إياسو :

- « لم يكن لي علم بذلك من قبل ، وما دعاني أحد ، وأظن أن الوعظ والصلوات ليس هناك مبرر بأن تؤدى هكذا بطريقة سرية . . »

ارتاحت نفس إياسو ، ليس هناك رجل آخر يعبث بشرفه ، وليست امرأته بالتي باعت نفسها لشيطان الجسد، وما دام الأمر كذلك فإن أي خطأ ارتكبته بعد ذلك قد يهون ، وقال إياسو وقد استرد رباطة جأشه ، وتمالك أعصابه :

ـ «إنني أحترم عقيدة زوجتي المسيحية ، ولا اعتراض لي على أدائها الصلوات أو تلقي الوعظ ، لكن لماذا لم يخبرني بذلك أحد ؟؟ هل من اللائق ديناً وعرفـاً أن تترك الامبراطورة قصرها دون علم زوجها ؟؟ إنني لم أفرض على زوجتي عقيدتي ، وتركت لها الخيار ، ومن ثم فلتؤد شعائرها في الوقت الذي تشاء . . ومع ذلك فإني أعتقد أن الأمر أكبر من ذلك . . »

شهقت الامبراطورة باكية ، وأسرعت نحو زوجها ، وارتمت تحت قدميه مستغفرة نادمة :

ـ « إرحمني يا ا [illegible] ، لم أستطع أن أعصي أمر أبانا ميتاوس لأنه أمر الله، إنني حائرة . . معذبة . . بائسة . . إرحمني يا إياسو ».

قال الامبراطور في هدوء ، وهو يرمق ميتـاوس بنظرة عاتبة :

ـ « هيا بنا أيتها الزوجة الفاضلة . . كفاك صلوات ووعظيات الليلة . . فليسمح لنا الأب ميتاوس».

تقاطرت حبات العرق على جبين ميتاوس ، وشعر بحرج بالغ ، وتمتم :

ـ « إنني بمثابة الوالد لكم جميـعاً . . ربما أكون قد جانبت الصواب . وكان علينا أن نطلب منك الإذن بذلك . . ولهذا فأنا

أقدم اعتذاري » .

ولم ينس أن يقول ٠

- « ومع ذلك فإن الأمر مجرد صلوات ووعظيات . . »

وقال للامبراطورة :

- « أليس كذلك ؟؟ مجرد صلوات ووعظيات . . »

فلم تجب الإمبراطورة ، وتركت الحجرة مطأطئة الرأس ، دامعة العينين ، حزينة الفؤاد تكاد تسقط إعياء ، بينما هز إياسو رأسه في وقار وهو يقول :

- « عمت مساءً أيها الأب ميتاوس . . الى اللقاء . . »

وانطلقت بهما العربة عبر الشوارع ، وقد ران عليهما صمت ثقيل ، وأنين الامبراطورة الخافت ، يتناهى إلى سمعه برغم الضجة التي تثيرها العربة ، ورأس أياسو نهب لدوامات عنيفة من التفكير . « هذه الحمقاء تجلب لي المتاعب ، وترتكب المزيد من الحماقات ، لقد حاولت جاهداً أن أعاملها كإنسانة حرة . وأن أغدق عليها ما أستطيعه من حب واحترام : كنت مؤمناً أن أبغض الحلال الى الله الطلاق ، وظننت أن تآلف الامبراطور المسلم والامبراطورة المسيحية فيه معنى كبير لا يخفى على ذوي العقول ، لكي أضرب المثل لهذا الشعب . . المثل الذي يجب أن يعيه جيداً . . أنه في الإمكان أن تحيا العقائد الدينية متآلفة متآزرة دونما تعصب أو جمود أو كراهية . . »

وعندما ضمتهما حجرتهما الخاصة ، قال الامبراطور :

ـ « ماذا كنت تفعلين هناك » .

انفرطت دموعها من جديد ، وعادت لطلب الرحمة والصفح والاعتراف بالخطأ.

فقال إياسو مصرّاً :

ـ « يجب أن أعرف الحقيقة . . »

ـ « كنت ألتمس البركات ، وأؤدي الصلوات . . »

ـ « هذا ما يجب أن تقوليه ، أما الشيء الآخر ؟؟ »

ـ « ماذا تقصد ؟؟»

صرخ فيها بحدة :

ـ « أنت تكذبين . أنت تجعلين من الصلاة ستاراً تخفين وراءه القذارة والعفة . . »

ـ « لا شيء أكثر من الصلاة يا إياسو . . »

ـ « تكذبين للمرة الثانية ، وليس ذلك من طبع المرأة الصالحة التي تحرص على تأدية شعائر دينها».

لم يكن إياسو من السذاجة بحيث يصدق زعمها أو زعم ميتاوس ، كان واضحاً أن الأمر أخطر من الشعائر والوعظ ، وميتاوس ليس بالرجل الهين . ولم يغب عن فطنة الامبراطورة أن اعترافها بما جرى بينها وبين المطران قد يهدم كل الثقة المتبادلة بين زوج وزوجته ، إنها مأساة بشعة تعيشها امرأة تحب زوجها ، وتجلس الى جواره على أعلى قمة في البلاد ، لقد ضاق حولها الخناق ، فإذا أصرت على قولها ، فهي كاذبة تخون قداسة الرباط

الزوجي ، وإذا تكلمت الحق ففي ذلك هو الآخر الاعتراف بالتآمر والغدر .

قالت الامبراطورة :

ـ «ليس هناك رجل آخر يسكن قلبي ، لم أطعنك في شرفك . . »

قال إياسو محتداً :

ـ « إن هذا الكلام نفسه يثيرني ، أنا على يقين تام من أنك لم ترتكبي حماقة من هذا النوع . . »

ـ «ليس لدي ما أضيف يا إياسو الحبيب . . ألا ترحم عذابي ؟؟ لقد أخطأت وهذا يكفي . . »

قال في أسى :

ـ « إنك تصرين على عنادك . وما أظن الحياة بيننا يمكن أن تسير على هذا المنوال ، فلا زواج بغير ثقة ، ولا حب بغير صراحة ، وأنت تدمرين أحلام الحب والسعادة والثقة التي كنت تنعمين في ظلالها . . إنني أحملك تبعة ما أقدمت عليه من طيش . . » .

وعاد الصمت يلف الحجرة من جديد ، ومضت بضع دقائق ، كانت الامبراطورة خلالها تعبث بأناملها تارة ، وبخصلات شعرها تارة أخرى ، وعيناها ما زالتا مبللتين بالدموع ، بينما بقي إياسو شارداً ، ثم قال وهو يهم بالخروج من الحجرة :

ـ « ليس الأمر لغزاً كما تتوهمين ، ففي إمكاني أن أتصور ماذا يمكن أن يحدث بينك وبين ميتاوس . فهناك مشكلة واحدة

تهم المطران وسيظل يفكر فيها ، ويحوم حولها ، ويبحث لها عن حلول . .المشكلة هي ببساطة هذا النجاشي المسيحي الذي أعلن إسلامه . . هذا هو كل شيء . . »

لحقت به الامبراطورة عند باب الحجرة وقالت :

- « الى أين ؟؟ »

- « سأنام في حجرة أخرى »

- « أتتركني وحدي يا إياسو ؟؟ »

- « انني أكره النفاق والمصانعة . . والكذب أيضاً . . ومن ثم فلست بقادر على أن أبقى مع هذه الرموز السوء في حجرة واحدة . . »

قالت في حزن :

- « لا تكن قاسياً يا إياسو . . إنني أخطأت . . أنت تعرف كل شيء . . لقد أقسمت على الإنجيل أن أحتفظ بالسر . . كانت خدعة ماكرة ، لقد أخبرني ميتاوس أن العذراء تجلت له في خلوته ، وقالت له عليك بالامبراطورة إنها هي مفتاح الخير للمسيحيين . . فعن طريقها تستطيعون إعادة الهارب من جنة يسوع . . لم أفهم - إلا أخيراً - أنني مجرد جاسوسة على زوجي لقد طلبوا مني بعض الأوراق والمستندات فقدمتها لهم كأمر العذراء . . وسألوني عن أكلك وشربك ، ونومك ويقظتك وأفكارك وأصدقائك وأعدائك . . سألوني عن كل شيء . . كانوا يؤكدون لي أن هذا من أجل مصلحتك ومصلحة البلاد العليا . . لكم يعز عليهم وعليَّ أن تحرم من جنة يسوع في العالم الآخر . . لم

أتصـور أن يقذف إيـاسو حبيبي الى الجحيم مـع العصـاة والمذنبين . . ومن ثم قدمت لهم كل ما يريدون . . »

تمتم إياسو في أسى :

- « الجنة ليست إقطاعية لميتاوس . . إنها جنة الله . . خالق يسوع وميتاوس . وبارىء الأرض والسماء والناس بمختلف مللهم ونحلهم . . هؤلاء المتعصبون هم الجحيم بعينه . . أتفهمين ؟؟ أي زوجتي الامبراطورة التعسة يؤسفني أن أقول:

« أنت طالق . . »

صرخت كالمجنونة :

- « مستحيل . . مستحيل . . إياسو . . ملعون هذا المدعو ميتاوس . . ملعون كل شيء . . إنني أريدك أنت . . أنت حياتي وجنتي وروحي . . إياسو . . إياسو . . »

لكنه صفق الباب في عنف بعد أن خرج . .

بينما قدمت أمه « شـو أرقاش » لتستجلي حقيقة الأمر ؛

وتمتم بينه وبين نفسه :

- « إن الخونة عقـوبتهم الإعدام . . أو الـطلاق على الأقل . . »

وتذكر إياسو ذلك المشهد الخالد في رواية شكسبير « حتى أنت يا بروتس !! »

٩

أرسل « تفري » إلى الأنبا ميتاوس رسالة خطيرة رداً على إحدى رسائله ، قال فيها تفري :

« عزيزي المطران الأعظم ، تلقيت ببالغ الغبطة والسرور رسالتكم الأخيرة ، وشدني اليها ما استطعت الحصول عليه من مستندات ووثائق خطيرة ، جلبتها لنا زوجة الامبراطور ؛ تلك المرأة الصالحة ، التي سيكـون لها دور بارز في تاريخ شعبنا ، ولقد دهشت أيما دهشة عندما تلقيت تلك المعلومات ذات الأهمية الخاصة والمتعلقة بالمفاوضات « السرية » التي كانت تدور بين الامبراطور « إياسو » اللعين وبين قنصل تركيا ، والتي فحواها أن إياسو على استعداد تام لتلبية طلبات تركيا ، تلك الطلبات الخاصة بمساعدتها في الحرب ضد الانجليز وحلفائهم من الغربيين ، لست أدري كيف سولت نفس هذا المأفون له أن يطعن الحلفاء الغربيين هذه الطعنة النجلاء ، في هذا الوقت العصيب بالذات ؟ إن الأمر واضح جليّ فإياسو يتعاطف مع تركيا دولة الخلافة

الإسلامية بدافع ديني لا يخفى على أحد ، وهل نسيت أنه كتب على علم الدولة عبارة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ؟ وهل نسيت أنه قدم ذلك العلم الجديد هدية لقنصل تركيا في أديس أبابا ؟؟ إنه يتصور أن تركيا تخوض حرباً مقدسة ضد الصليبية في أوربا بصرف النظر عن الاعتبارات الأخرى ، ونسي هذا الامبراطور الأبله أن تركيا في الماضي قد اكتسحت شرق أوربا ، ونشرت الإسلام في ربوعها ، وأذاقت أهلها الهوان ، وأنها ظلت لعدة قرون تقف صامدة قوية ، تحول دون الزحف المسيحي الى الشرق ، بل إن سلطان تركيا قد امتد حتى شمل مساحات شاسعة من افريقيا وأوربا ، لقد آن الأوان لكي نتخلص من هذه الامبراطورية التركية العنيدة العتيدة ، بعد أن أصبحت على حد تعبيرنا « الرجل المريض » ، وبعد أن انحرف سلاطينها ، واستبدوا بشعوبهم ، والآن ، يأتي إياسو ليساعد هذا العدو اللدود ! إن في ذلك خيانة أبشع من خيانته للديانة المسيحية نفسها بل إن هذين التصرفين الأحمقين ليسا سوى وجهي عملة واحدة ، ولقد أسعدني أنك بادرت وأطلعت أصدقاءنا من الانجليز والفرنسيين على هذه الوثائق الخطيرة ، ولقد وصلتني أنباء أكيدة عن ذعرهم لهذه الوثائق ، واهتمامهم الزائد بها . . لقد أصبح مؤكداً لدى الجميع أن « إياسو » نكبة من النكبات العظيمة التي دهمت تاريخ الحبشة ، وأن هذا الامبراطور الأرعن يجب الخلاص منه في أقرب فرصة ممكنة . . . ومن ناحية أخرى فقد أسعدني هذا التصرف الأحمق منه لعدة أسباب : أولها : أنه قد وضع أصدقاءنا الغربيين في موقف لا يحتمل السكوت ، بل لا بد

أن يتحركوا معنا بكل قوة وإخلاص ، وأن يواجهوا هذا الخطر الداهم ، قبل أن يبعث إياسو إلى تركيا بالمال والرجال والمؤن واللحوم وغيرها ، وثانيها : أنه قد شغل نفسه بجبهة أخرى يستنفد فيها طاقته ، إذ لا شك أن اشتراك إياسو في هذه الحرب سوف يتيح لنا فرصة أكبر لتدبر أمره ، وإحكام الضربة ضده .

وثالثها : أنه سوف يمتص فائض دخل الأمة في حرب بعيدة عنه ، وهذا يعطينا فرصة لإثارة الناس وخاصة العناصر المسيحية ضده ، ومن ثم لا بد أن نبين لهم أن هذه الحرب واشتراكهم فيها، سوف تعود عليهم بالفقر والدمار، بالإضافة الى أن تحركه للحرب في صف تركيا سوف يبطل دعواه في حب السلام والرفاهية والحياة بين القوى المتصارعة في الداخل أو الخارج . .

سيدي المطران الأنبا ميتاوس . .

إن صحت الانباء القائلة بأن إياسو سوف يسافر الى الجنوب لتجميع جيش ضخم للحرب ، فإن هذه ستكون فرصتنا الأولى والأخيرة ، سيكون هو في الجنوب ، وسيكون أبوه في مقاطعة « والو » . . . وستكون أديس أبابا بلا امبراطور أو خطة للدفاع ، وسينقض عليها رجالنا في حراسة الله ، ومع الجموع المؤلفة من رجال الكنيسة ، حيث تدق الأجراس في الكنائس . . أجراس النصر . . وختاماً . . ولنا عودة . . . ؟؟

* * *

طوى ميتاوس الخطاب ، وتحسس لحيته شارد النظرات ،

مكدود الفكر ، يستعيد بذاكرته ماكتبه الرأس « تفري » ، لشد ما يبهره تفكير تفري ودهاؤه ، إن هذا الرجل ذا القلب القاس ، هو رجل المعركة الحاسمة بلا منازع ، إن رجل الحكم لا يصح أن يكون ملاكاً وإلا تمرد السفلة ، واستعلت إرادة المفكرين ، وساد البله والتسامح ، ونحن أحوج ما نكون الى القسوة والعنف كي نقضي على ذلك الانتشار الإسلامي البغيض الذي أشقانا طوال القرون الماضية . . أنا لا أكاد أصدق التاريخ ، كيف جاء يوم كانت فيه بالحبشة سبع مقاطعات إسلامية صرفة ؟ وكيف يبلغ عدد المسلمين في الحبشة ثلاثة أرباع السكان ؟؟ إنها لكارثة كبرى ، بل إنها لداء وبيل لا يشفيه التسامح والسلام والإخاء ، لا شيء غير القوة . . القوة وحدها هي القادرة على ردع الفكر الإسلامي ، وتشتيت التجمع المحمدي الخطر ، ووقف غزو اللغة العربية وحضارتها . . . إن إياسو لعنة هبطت علينا من السماء . . ولا نجاةإلا بالرأس « تفري » . . إنه السيف الصارم الذي لا يرحم ، والقلب الحديدي الذي لا يرق ، والعيون المتحجرة التي لا تدمع . . .

وكفَّ ميتاوس عن التفكير حينما رآها تدخل عليه ، هتف مندهشاً :

ـ « الامبراطورة . . . »

قالت وقد كشفت خمارها :

ـ « أتيت اليك يا أبتاه خائبة تعسة . . . »

ـ « لكن الامبراطور قد يأتي في أية لحظة . . »

ـ « لا تخف . . . »

قال مضطرباً :

- « خبريني . . هل عرف الحقيقة ؟؟ »

- « أجل . . كل شيء . . »

- « كيف ؟؟ لقد أقسمت على الإنجيل أن تخفي سرنا . . »

- « أنت يا أبتاه لا تفكر إلا في نفسك وأغراضك . . »

ضرب كفاً بكف ، وهتف :

- « لقد ضعنا . . إن اعترافك أوقعنا في ورطة خطيرة لا نجاة منها ولا مهرب كيف تتصرفين هذا التصرف ؟؟ لقد ضعنا . . »

قالت في غيظ :

- « أنا التي ضعت . . لقد فقدتِ كل شيء . . لقد طلقني الامبراطور . . طلقني يا أبتاه وأنا أحبه . . »

هز الأنبا رأسه ،بينما انفجرت الامبراطورة باكية ،وقال ميتاوس :

- « ألم يخبرك ماذا سيفعل بنا ؟؟ »

صرخت : قلت لك لقد طلقني . . ألا تهزك هذه الكلمة ؟؟ إنها تجعل جسدي كله ينتفض . . إنها أفظع من الموت . . طردني من قصره . . لن أراه بعد اليوم . . إن إياسو حبيبي لم يعد لي . . ألا تهزك هذه الفجيعة ؟؟ إني أشعر أن العالم كله قد استحال الى سواد . . أيامي لا معنى لها . . أنا لا شيء أصبحت جيفة . . كومة من أسى وعذاب وضياع . . لقد طلقني يا أبتاه . . »

ثم ألقت برأسها على كتف المطران منتحبة ، تبلل ثيابه بدموعها المنهمرة . .

ـ « لا عليك يا ابنتي . . إن السماء تفتح لك أوسع أبوابها . . والعذراء تبتسم لك في عزاء . . إنه تعس خاطىء لا يعرف الحق . . لقد نجوت إذ كيف كنت تعاشرين رجلاً مسلماً لا يؤمن بيسوع . . »

قالت وكأنها لم تسمع شيئاً مما قال :

ـ « لم لا تصلي من أجلي يا أبتاه ؟! فلتدع العذراء أن تعيدني إليه إلى إياسو حبيبي . . إنني أحبه برغم كفره . . »

قال ميتاوس في جفاف :

ـ « إن العذراء ترفض أن تعود الطاهرات التائبات إلى المدنسين الخطاة . . »

قالت والدموع تترقرق في عينيها :

ـ « إن العذراء تقسو عليّ . . لا يرضيها أن يتحطم قلبي . . فلترتل الضراعة إليها فلعلها ترق لي . . إن يسوع إبنها كان يحيي الموتى ، ويشفي المرضى ، ويصفح عن الخاطئين ، ويحمل آمال البشر وخطاياهم ، ويفديهم بحياته . . فلتعدني العذراء إلى إياسو . . »

قال متوتر الأعصاب :

ـ « أنت لا تحبين إياسو . . »

ـ « بل أحبه . . ليس في قلبي غيره » .

ـ « أصمتي يا عاشقة المجد . . أنت تحبين اللقب الضخم ، والقصر الكبير ، والحراس والحجاب ، وهيلمان الامبراطور . . والذهب والجواهر . . وكل هذه المظاهر إلى فناء . . . »

- « بل أريده وحده بلا مجد ولا قصور ولا سلطان ، لو كان متسولاً يحمل غرارة على ظهره ، ويستجدي الموسرين لما أخذت سواه»؟؟

قال ميتاوس وأنفاسه تتلاحق :

- « لن تعودي إليه . . إنه لا يعرف الصفح ولا الرحمة . . »

- « لأني خنته . . »

- « ولأن إرادة الله ترفض أن تعودي اليه . . أي بنيتي يجب أن تعلمي أنك قد أديت واجبك المقدس نحو الله والوطن ، وأنك قد ضحيت بنفسك في هذا السبيل ، وأنت لا تقلين منزلة عند الله عن القديسين والشهداء . . . أي بنيتي . . . إنها إرادة الله الأخيرة . . يجب أن تفكري في الذهاب إلى الدير كي تترهبي . . إنك بذلك تبدأين الخطوة الأخيرة والحاسمة نحو ملكوت السماوات . . »

أطالت النظر الى المطران ، وهتفت في وهن :

- « اغفر لي يا أبتاه »

- « ماذا أغفر لك ؟؟ »

- « لتغفر لي خيانتي . . فقد خدعت أعظم رجل في الحبشة . . خنت إياسو حبيبي . . فهل ترضى عني السماء؟؟»

- « إذهبي عني . . لقد التاث عقلك ، واضطربت أعصابك . . إذهبي ودعيني أفكر في حل المشكل الذي تسببت فيه بيننا وبين الامبراطور . . »

خرجت الامبراطورة تجر حطامها ، أنغام حزينة تهوم في

رأسها المتعب ، خيالات غامضة تمر بذاكرتها ، وفارسها الأسمر قد تركها وولى فوق جواد أشقر ، وخلفه عروس من حور العين ، تترنم بأنغام علوية إياسو . . إياسو . . طر بنا نحو السحاب ، دارت الأرض بـالامبراطـورة ، واختلطت الصرر في ذهنهـا المشوش،ولم تعد ترى أو تعي شيئاً،فـارتمت لدى عتبـة الباب مغمى عليها ، وهي تردد بصـوت واهن حالم « إيـاسو . . إياسو . . » .

١٠

لقد ساد القصر الامبراطوري كثير من التوجس والاضطراب منذ أعلن إياسو إسلامه، فإن شـو أرقاش التي كانت تتردد بين « والمو » وأديس أبابا ، لم ترتح كثيراً لهذا التصرف . وأبوه « ميكائيل » سر لذلك أيما سرور ، وإن شعر بصعوبة الأمر . ولعله كان يرى أن « إياسو » قد تعجل بعض الشيء ، إذ كان يجب أن ينتظر حتى تتوطد سلطاته ، ويستقر أمره ، والأميرة « زوديتو » خالة إياسو ، وابنة منليك رفضت هذا التصرف رفضاً قاطعاً ، ولم يزد الأمر عن مجرد المعارضة الشكلية . فبقيت علاقتها بإياسو طيبة لم يشبها كدر حقيقي ، أو عنف في المؤاخذة ، وزوجها « غوغسا » كان يرى أن في تصرف إياسو إهانة للكنيسة ، وضربة قاصمة للمجتمع المسيحي في الحبشة ، وأن ذلك سوف يجلب عليه المتاعب . واصطخب الحوار والنقاش الحاد في أروقة القصر بين أفراد الأسرة ، كما احتدم بين الخدم والحرس ، فترك ذلك كله أثراً بالغاً في الصفاء الأسري ، والاستقرار النفسي . وزاد الطين بلة ذلك التصرف الغريب الذي أقدمت عليه زوجة الامبراطور ،

عندما تعاونت مع ميتاوس ، وكشفت له عن أسرار زوجها ، ونقلت اليه بعض المستندات والأوراق الخطيرة ، مما نتـج عنه طلاقها ، فكان هذاالحادث مثل إسلام إياسو . إذ وجد فيه المتعصبون والحاقدون وأعداء الامبراطور ، فرصة ذهبية كي يملأوا منتديات « أديس أبابا » ، وأنحاء الحبشة بالترهات والأكاذيب التي تناولت شخصية الامبراطور . وأثارت الشبهات حول سلوكه وسلوك زوجته ، ولا شك أن ذلك كله أثر في سمعة الأسرة الحاكمة ، وألقى ظلالاً من الشك وعدم الثقة فيها ، فقد حرصت الكنيسة وعملاؤ ها ، كما حرصت الدوائر الأجنبية ، والهيئات التبشيرية على بلبلة الأفكار باختلاق الأكاذيب والمزاعم التي لا تقوم على أساس حقيقي . وأمام هذه العاصفة القاسية من الحقد والتشنيع المرير بقي إياسو قلقاً حائراً يفكر . ماذا يفعل ؟؟ وكيف يواجه هذا التيار الغاضب من الافتراء والتحدي ؟ أيضرب الكنيسة ضربة لا رحمة فيها ولا هوادة ؟؟ أيطارد المغرضـين ، ويمزق شملهم ويلقنهم درساً في الأدب والإخلاص ؟؟ أيطرد بعثات التبشير ، وقناصل الدول المعادية ؟؟ لا . . لن يفعل ذلك ، لن تستطيع أية قوة في الوجود أن تحيد به عن الخط الذي رسمه لنفسه . لن يخرج عن سياسة التسامح والإخاء ، ولسوف يصفح عن خطايا الكنيسة ومؤ امراتها الحاقدة ، لن يفتح الطريق لفتنة دامية قد تشعل النار في أمن وطنه . وتهدد كيانه الآمن . ولسوف يخرج الى الناس ليوضح لهم ، بقدر ما تسمح به الظروف ، الحقائق ، سيقول لهم إن أعداء الحرية والتسامح والإخاء يأبون إلا أن يجروه الى طريق الدماء والعنف ، ولكنه لن يمضي في هذا الطريق برغم الإثارات

والتحريضات ، لأن تسامحه أقوى من حقدهم ، ولأن إيمانه بمبادئه لا تزعزعه الأعاصير والتدابير الشيطانية ، إنه قادر على أن يضرب بشدة ، وقادر على أن يخرس الألسنة المغرضة ، والإشاعات الكاذبة ، ولكن سلوكه ومنهجه سوف يحبطان مكائد الكائدين .

والحقيقة أن إياسو كان يكبح جماح نفسه ، ويمنعها من الزلل والاندفاع ، وجاء إليه أبوه ميكائيل (محمد علي) ذات يوم ، وقال له :

- « أعرف يا إياسو أنك تعاني من أزمة نفسية عاتية » .

-«هذا حق يا أبتي . . لكن تحرري من إسار الوهم والخوف ، وإعلان إسلامي على الملأ قد أراحني كثيراً . . إن تعبيرك عما يجيش في صدرك دون خوف ، وفي ظروف حالكة كهذه شيء عظيم . . إنه ميلاد جديد . . غير أن ما أقدمت عليه زوجتي من حماقات قد أثارني الى أبعد الحدود . . قد أفقدني الثقة في كثير من الناس . . »

- « أجل يا إياسو . . كانت لعبة دنيئة ماكرة . . »

- « إن بعض أسرار الدولة العليا قد وقعت في يد ميتاوس ، وأنت تعلم أنه على صلة وطيدة ببعض قناصل الدول . . تصَور . . لم أجد محاضر الاجتماعات الخاصة بالتعاون مع تركيا ، إنه لأمر يدعو للأسى والضيق البالغ . . لسوف أتجاهل ميتاوس . ولن أفاتحه في شيء . . »

قال ميكائيل :

- « إن شعبنا طيب . ويذكر دائماً الأيادي البيض التي تقدَم اليه . . وكثير من الأكاذيب التي يروج لها الأعداء تسقط دبر أذنيه . . لكنه لا يصح أن يعاني من فراغ . . تماماً مثل قصر الامبراطور هو الآخر لا يصح أن يعاني من فراغ . . »

قال إياسو :

- « ماذا تعنى يا أبي ؟؟»

- « أعني ، أن تتزوج . . يجب أن تملأ الفراغ الذي تركته زوجتك السابقة - وبالتالي سيجد الشعب عوضاً ، سيجد قصة جديدة قد تحل محل الترهات القديمة التي تروج لها الكنيسة والأعداء ، الفراغ ، إن لم تملأه بالعناصر الطيبة والفكر الحيْ ، ملأه الحاقدون بالافتراءات والأكاذيب . . أتدرك ما أرمي اليه ؟؟ »

عاد إياسو يقول :

- «إنني انتظر رسالة من أمير هرر الأمير محمد عبد الله . . لقد رأيت ابنته . . لشد ما أعجبت بدينها وسماحتها وذكائها وجمالها أيضاً . لكأنما ولدت لتكون زوجتي . . »

ضحك أبوه قائلاً :

- « إنها امبراطورة قلبا وقالباً . . ثم إنها لن تخرج من القصر لتلتمس البركات من مصدر آخر . ولن تسرق الوثائق . . ولن تكون موزّعة الولاء . هذا ما أتمناه . . إن سمعة أبيها وأسرتها فوق الشك والريب . . »

وشرح إياسو لأبيه كل ما يحيط بالزواج من ملابسات ، وأكد

له أن هذا الزواج قد يتم خلال أيام قليلة، ولم تكد تمضي أيام قليلة فعلاً حتى صرح مصدر امبراطوري أول تصريح رسمي عن زواج إياسو من ابنة أمير هرر ؛ فسرى النبأ في كل مكان ، وغطى على ما عداه من الأنباء والترهات والشائعات . .

وتمتم الأب « ميتاوس » لمن حوله قائلاً :

ـ « إن عدد المسلمين في القصر يزيد واحداً من آن لآخر . لم يبق الا أن يجلب إياسو لنفسه أمّاً جديدة تكون مسلمة . . إن هذا الخبيث يخطط لبعيد ، لكننا سنقف بالمرصاد لكل مخططاته . . إن هذا الامبراطور منذ جاء يشغل الأمة بأفكاره وأفعاله ، لا يكاد يمر شهر دون أن يكون هناك جديد».

وجلس ميتاوس يجتر أساه ، ويصر على أسنانه في غيظ ويهمهم : « لماذا حدث كل ذلك في عهدي ؟؟ لسوف يكون ذلك سبَّةً في تاريخي الشخصي وتاريخ الحبشة ما لم أفعل شيئاً ، أيقال غداً إنه في أيام ميتاوس ، أعلن الامبراطور المسيحي إسلامه ، ووقف المد المسيحي ، وزاد عدد المعتنقين للاسلام ، وتوقفت الحملات التأديبية ضد المسلمين ، وقويت شوكة اللغة العربية ، وزاد عدد المساجد ، وقيدت حركات الهيئات التبشيرية ؟؟ يا للمهزلة » . .

ودخل أحد الخدم وقال :

ـ « الامبراطورة قادمة . . »

صاح في حدة :

ـ « ما الذي أتى بها الآن ؟؟ أتراها جاءت لتذرف أمامي

الدموع ، وتقول إن إياسو سيتزوج ابنة أمير هرر ، وأنها تحملني تبعة ما حدث . . »

وجاءه صوتها من خلف الخادم :

ـ « معذرة يا أبتاه ، ما جئت لأذرف الدموع ، ولا لأعترض على زواج إياسو ، فأنا أستحق ما حدث . . إن المسؤولية كاملة تقع على عاتقي وحدي إن تحريضك لم يكن كافياً لكي أسقط . . »

هتف ميتاوس :

ـ « تسقطين ؟؟»

ـ « أجل يا أبتاه . إنها سقطة كبرى . . لقد عرفت كل شيء . . قرأت الإنجيل وشروحه القديمة ، فصدمتني حقيقة مرة . . إنكم أبعد ما تكونون عنه ، إن لكم تفاسيركم وشروحكم الخاصة . . لقد عرفت في النهاية أن طريق الله مفتوح أمام الجميع دون وساطة أحد . . ليس من الضروري أن أبحث عمن يأخذ بيدي الى الله . إن كتاب الله هو المرشد والدليل ، وإن الوسطاء كثيراً ما يحرفون الكلم عن مواضعه ، وإن كلماتهم المكتوبة تلتزم الحذر ، لكن كلماتهم المنطوقة تنطلق دون تحفظ . . وهم يخاطبون الناس بلغات مختلفة ، أنا مثلاً أستسلم لأوامرك عندما أعلم أنها أوامر السيدة العذراء . . في إمكانك أن تخدعني ، لكن من المستحيل أن تخدع إياسو . . لأن روحه حرة ، وفكره منطلق ، ويحسن التعبير عن ذاته . . لا يرهب القلق ولا يتبرم بالحيرة . . إن نار القلق المقدسة لا تحرقه ، ولكنها

تدفيء قلبه ولهذا انتصر . . جئت لأقول لك إنني أحترم إياسو ، وما زلت أحبه . . مع أنـي باقيـة على ديني ،ولن أعتنق الإسلام » .

وصاح الأب ميتاوس في حدة :

- « أجئت هنا لتقولي هذا الكلام ؟؟ كان أحرى به أن يسمعه إياسو لعل قلبه يرق لك ، فيعيدك إلى قصره » .

قالت الامبراطورة السابقة :

- « لا يهم . . إن إياسو يعيش في قلبي وروحي . . إنه معي في كل لحظة من الليل أو النهار ، وإن تباعدت أجسادنا ، أنا لا يهمني الإقامة في قصره ما دام هو يجلس على عرش قلبي . . إنني مؤمنة بأن أية قوة في الوجود غير قادرة على انتزاعه مني . . إنني أملك كل شيء لأن روحي أصبحت عامرة بالإيمانِ الحقيقي والحب الأصيل . . لقد حاول المسكين ردحاً طويلاً من الزمن أن ينمي قلبي بهذه الحقائق ، وأن يقنعني بأن الزواج ليس جسداً فحسب ، وأنه ليس بالحب وحده يحيى الإنسان ولكنني كنت غافلة . . ليكن . . أنا لا يهمني ما حدث ما دمت قد وصلت الى الشاطىء الآمن . . الى الإيمان الحقيقي بالله . . إن إياسو الحبيب سيظل أعظم رجل في تاريخ الحبشة حتى ولو أزلتموه عن عرشه غداً . . لأن عرشه ليس من أحجار وجواهر وحرير . . »

هبَّ الأنبا ميتاوس واقفاً وقال :

- « ماذا تريدين ؟؟»

- « لقد عرفت يا أبتاه ما أريد . ولسوف أنصرف قبل أن تطردني . . »

ـ « على ألا تعودي الى هنا مرة أخرى . . »

ـ « لا يهم . . لأن رحاب الله أوسع من رحابك ، وهو لا يطرد أحداً من ملكه . . حتى العصاة والخطاة لا يغلق في وجوههم بابه . . »

صرخ ميتاوس :

ـ « هيا أخرجوها من هنا ، لا أريد أن أرى وجهها بعد الآن . . مطرودة من رحمة الله هي . . »

ـ « رحمة الله من حق الله وحده . . الله يرفض أن يكون له شركاء في ملكه . . » .

وحدث هرج ومرج ، وتجمع كل من بالمبنى من القساوسة والرهبان والراهبات ، وأخذوا يرقبون المشهد المثير فاغري الأفواه ، خافقي القلوب ، وهم يتساءلون : ماذا جرى ؟؟ لماذا كثر التمرد ، وعصى الناس رجال الدين المقدسين ، حتى الأنبا ميتاوس تصرخ في وجهه امرأة ، فيزايله وقاره ، ويفارقه حلمه المعهود ؟؟

وشقت المرأة طريقها وسط الحشد الكبير مرفوعة الرأس ، وقد علقت قطرات دمع بأهدابها الطويلة ، ثم قصدت عربتها ، وانطلقت بعد أن أثارت العجلات المسرعة زوبعة من التراب .

* * *

وأقيمت الزينات ودقت الطبول ، وارتفعت الأعلام المكتوب عليها « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . وتبادل الشعب التهاني بمناسبة زواج الامبراطور من ابنة أمير هرر .

ولقد كان فرح المسلمين خاصة غامرا فياضا . كانوا يشعرون

أكثر من غيرهم أن الامبراطور امبراطورهم، وأنه إحساس لا يمكن مقاومته . وخاصة في ذلك البلد الذي قاسى فيه المسلمون الكثير من العبث والمظالم والانتقام الدموي الرهيب على فترات متقاربة من التاريخ . ولم تكن خطب «إياسو» ، ولا دعواته الى الأخوة والتسامح والحرية العقائدية ، بقادرة على أن تصفي تماماً ما يضطرم في النفوس من مشاعر دينية ، ويكفي أنه وقف حائلاً دون أن تتحول هذه المشاعر الدينية الى انتقام وقلق واضطرابات . . وهي خطوة انتقالية لكنها هامة ومؤثرة، لأن التصفية النهائية للعقد الدينية ، المرتبطة بالوقائع الدامية ، والاضطهادات المريرة تحتاج الى مزيد من الوقت والتثقيف والتربية . . فهي عملية تحول نفسي بطيء .

* * *

قال إياسو لزوجته الجديدة :

ـ « ما هي أعظم أمنية لأحققها لك ؟؟ »

قالت في خفر وحياء :

ـ « أن أراك مؤمناً راضياً »

ابتسم في سعادة غامرة وقال :

ـ « إنه شيء يتعلق بي أكثر مما يتعلق بك . أريد أن أبذل شيئاً من أجلك فإذا بك تتمنين شيئاً لي . . »

ـ « أنا أنت ، وأنت أنا . . »

ـ « امرأة في عز شبابها تتحدث كالمتصوفين . . »

ـ « لا أفكر في ذلك يا إياسو الحبيب . . إنني فقط أترجم

بصدق عما يشعر به قلبي ، ويؤمن به عقلي . . إن زوجة الامبراطور يا إياسو الحبيب يجب أن تكون أكثر من زوجة . وأكثر من امرأة وأكثر من حبيبة . . إنها ذات رسالة خطيرة . . »

قال مـداعباً :

ـ « هل حفظت ذلك عن أبيك ؟»

ـ « بل تلقيته عن أمي . . ثم رأيته يحدث أمام عيني في قصر أبي في هرر . . آه . .طبعاً أنت تعلم ما كانت تقاسيه هرر من موجات الغزو الصليبي الأحمر . . لكأنها كانت دائـماً ميدان قتال . . »

ووجدها إياسو ما زالت تلتزم الجدية في حديثها فقال :

ـ « إن سعادتي بك فوق التصور . . أنت بنت الأحداث العاصفة ، والإيمان الذي لا يتزعزع . . إليّ أيتها الحبيبة . . لكم أتمنى أن أضمك الى صدري . . إن شعـوراً فياضاً هادراً يسري في كياني كله . . هذا يوم المنى . . »

أدارت وجهها في حياء ، وتوردت وجنتاهـا خجلاً . . وابتسمت . .

١١

إياسو لا ينكر أن الحرب ضد تركيا والشرق حرب اقتصادية تؤججها المطامع الاستعمارية ، لكنها في الوقت نفسه تخفي وراءها أهدافاً صليبية ماكرة ، تبغي الكيد للأمم الإسلامية ، وتحطيم وحدتها ، والقضاء على قوتها المتوثبة على حقب التاريخ . وإياسو يرى أن مساعدته للإنجليز والفرنسيين تحمل في طياتها ـ من الوجهة السياسية ـ أخطاراً مؤكدة . فإذا ماتعاون معهم فلسوف يزداد سلطانهم ونفوذهم في الحبشة ، وسيرتبطون بعجلتها إلى الأبد ، وفي ذلك ما فيه من ضياع حرية البلاد ، وتهديد مصيرها ، والمساس بقضية العقيدة فيها : إن القضاء على الخلافة الإسلامية في نظره برغم الانحراف الذي دبَّ في أوصالها ، والطغيان الذي مارسه بعض سلاطينها ، سوف يدمر حاجزاً ضخماً يقف حائلاً أمام الأهداف الصليبية والاستعمارية في العالم ، وسينهار الرمز الذي تحتشد وراءه العواطف الإسلامية على الرغم من حركات التمرد القومية ضد عسف تركيا . . . وهكذا تبلورت الفكرة في رأس إياسو . . أن يحمي بلاده من التدخل الأجنبي

بعدم التعاون مع الحلفاء ، وأن يحمي العقيدة التي يؤمن بها بالوقوف في وجه التخطيط الصليبي ، والأهداف الاستعمارية . . ولو كان إياسو يبغي مجداً شخصياً رخيصاً ، وتثبيتاً مستعاراً لدعائم عرشه ، لبقي مسيحياً في الظاهر ، ولنافق الكنيسة ، ولاستجلب رضى الحلفاء . . لكنه لم يكن كذلك ، لن يفعل سوى ما يؤمن به ، ولن يستجيب إلا لمنطق العقيدة ، ورغبات الشعب . . . أجل رغبات الشعب . . فقد انهالت عليه المكاتبات من المسلمين وعلمائهم وذوي الرأس فيهم في شتى أنحاء الحبشة ، وهم يشكلون أغلبية تبلغ خمسة وسبعين في المائة ، كانت هذه المكاتبات تطالب بالتعاون مع تركيا دولة الخلافة الإسلامية ، والتي تتعرض للانتقام الاستعماري والصليبي ، إنهم يرون بأعينهم كيف ابتلع الانجليز مصر ، وكيف استولت فرنسا على المغرب العربي ، وكيف يتوثب الانجليز والفرنسيون لابتلاع الشام وغيرها، ومن ثم طالبوا بعدم التحالف مع الحلفاء وبمؤازرة تركيا بكل قوة. وفعلاً عزم إياسو على الذهاب نحو الجنوب لتجميع جيش كبير يرسل به لمؤازرة تركيا، وبينما هو يعد العدة لذلك، قدم أبوه. . .

قال ميكائيل :

ـ « أي ولدي . .إن اتجاهك شريف لا شك فيه ، لكنني أخاف الغدر »

ـ « ماذا تعني ؟ »

ـ « إن انهماكك في الاستعداد الحربي ، قد يعطي فرصة للطامعين . . إن رؤوس بعض المقاطعات لا يكنون لك إلا كل

عداء ، والكنيسة سوف تفقد صوابها ، ولهذا كنت أفضل الحياد ، وعدم الاشتراك الفعلي في الحرب . . »

قال إياسو :

- « كيف يمكن أن أقف محايداً بين حق وباطل يتصارعان بالسيوف ، ويراق بينهما الدم ؟؟ »

- « يبدو لي يا إياسو أن آمالك أكبر من قدراتك . . »

- « إن شعبنا يستطيع أن يصنع المستحيل ، أو يحقق الكثير على أسوأ تقدير . . إنني حينما أحارب إلى جوار تركيا ، إنما أدافع بذلك عن الحبشة . . »

- « هذا تصور طيب ، لكنك إذا ما هُزمت تركيا ، وهو الأرجح فقد فقدت الحبشة ، قد يأتي إليك الضرر من حيث تتوقع أن تأتي الفائدة . . »

وظل إياسو يفكر فيما قاله أبوه لبضع ليال ، يفكر في احتمال هزيمة تركيا ، وما قد يجره عليه من مشاكل سياسية واجتماعية وعنصرية ، ويفكر فيما يصر عليه ذوو الرأي من أمته ، وما تعتنقه الكنيسة من ضرورة مناصرة الحلفاء ، ويفكر في المحادثات التي كانت تجري بينه وبين قنصل تركيا ، وقناصل فرنسا وانجلترا وايطاليا . إن بعد النظر السياسي يكاد يوقفه عن التحرك لمساعدة تركيا ، وحرصه على عدم التفريط في ثروة وطنه ، وأفراد شعبه ، وأحقاد الكنيسة ، كل ذلك يجعله يفكر ألف مرة قبل أن يقدم على هذه الخطوة الحاسمة . لكنه تساءل : هل كل أمور الدنيا والدين ينظر إليها بعين الكسب والخسارة ، والشر الذي قد يقع ، أو الخير الذي قد يأتي ؟؟ إنه ينظر إلى الأمر من زاوية أخرى . . إنه يرى

معركة بين الحق والباطل ، بين الصليبية المتخفية ، والإسلام المفترى عليه ، ولا ينفي هذا التصور وقوف ألمانيا إلى جانب تركيا ، فألمانيا لا تختلف مطامعها عن مطامع انجلترا، لكنه عند النصر فستكون تركيا منتصرة وألمانيا منتصرة . ومن ثم فستكون الفدية متوفرة ، ولن تخسر تركيا المسلمة المنتصرة ، مثلما تخسر تركيا المسلمة المنهزمة . لشد ما يكره إياسو الحياد في مثل هذه الأمور ، إن عليه أن يختار بين الحق والباطل : بين منطق الكسب والخسارة ، ومنطق المثل العليا . . لهذا قرر « إياسو » أن يمضي في الطريق دون أن يتراجع . . لسوف يذهب إلى الجنوب ليعد العدة لمساعدة تركيا ، لسوف يحسم الأمور كما يحلو له دائماً ، بطريقة واضحة لا غموض فيها ، فغالبية الشعب تؤيده ، وعاطفته الدينية تدفعه إلى ذلك ، وخوفه من الحلفاء إذا ما انتصروا يحرضه على الوقوف ضدهم . . »

قال إياسو لزوجته :

- « إنها حرب مصيرية يا عزيزتي . . »
- « أعرف ذلك . . »
- « وأبوك في هرر يرى فيها تجربة طيعة لتدريب المسلمين واستثارة حميتهم من جديد ، حتى يمكنهم الحفاظ على عقيدتهم ضد أي غدر مجهول . . »
- « إنه يؤمن بذلك تماماً . . »
- « وأنت ؟ أليس لك رأي خاص في هذه المشكلة . . »
- « أنا لا أعرف كثيراً عن هذه الأمور ، ولكني أؤمن أن

الحرب فريضة في حالة الدفاع عن النفس والشرف والعقيدة . . »

قال إياسو في فرح :

- « إذن لم التواضع ؟ أنت تعرفين خير ما يجب أن يُعرف »

- « أتحارب إذن دفاعاً عن ذلك كله . . ؟ »

- « أجل يا عزيزتي . . »

- « فأنت على صواب . . »

قال إياسو شارداً :

- « لكن ذلك سيكلفنا الكثير من التضحيات ، وسيجلب علينا مزيداً من الأخطار . . »

- « لتزن الأمور بدقة . . »

- « إنني أزن الأمور بميزان قد لا يعجب البعض . . »

ثم صمت برهة ، وعاد يقول :

- « إن أغلب حكام المقاطعات قد أيدوني في مناصرة تركيا . . »

قالت زوجته :

- « وزوج مالفن ؟؟ »

- « تفري ؟ »

- « أجل . . إنه حصيف ، ورأيه له وزنه . . »

- « الغريب في الأمر أنه يشتعل حماساً لرأيي ، لقد أبدى استعداده لإرسال بعض المتطوعين المسلمين في مقاطعته . . أحياناً يبدو«تفري»واقعياً مغرقاً في الواقعية . لقد قال أنه قد تردد في مثل هذا الأمر نظراً لما علمه من تضايق قناصل الحلفاء في الحبشة ، لكنه أكد لي أن رغبة غالبية الشعب فوق كل اعتبار ، لقد

قابل تفري الأمر بهدوء ، وكذلك فعل غيره من حكام بعض المقاطعات المسيحيين، وأما البعض فقد اعترض صراحة على التعاون مع تركيا ، زاعماً أن بعض الدول الاسلامية والعربية التي تحكمها تركيا قد انحازت للحلفاء . . والكنيسة تبدو وكأنها على الحياد ، لكني على يقين أنها قد غضبت غضباً شديداً من جراء اتجاهي الجديد، ومن ثم فقد رضخت للأمر . وميتاوس أخبرني أنه ملزم بالانصياع لرأي الأمة، وإرادة الامبراطور المحبوب . . »

وسادت فترة صمت قال إياسو بعدها :

- « وأنت ألن تأتي معي إلى الجنوب ! ؟ »

قالت زوجته في دهشة :

- « أتمزح يا إياسو ؟؟ »

- « لا يا عزيزتي . . »

قالت وهي تهم بالانصراف :

- « هل سيأخذ الضباط والجنود والقواد زوجاتهم معهم ؟؟ »

- « لا . . »

- « فلماذا إذن تتصرف على خلافهم ؟؟ »

قال باسماً :

- « لأني الامبراطور »

وأخذ جسده يهتز مع ضحكاته . ثم عاد يقول :

- « إن الفارق كبير . . كبير جداً . . »

- « ماذا تعني ؟؟ »

- « لقد طرحت السؤال نفسه على زوجتي السابقة ، لا . .

لم أطرحه ، بل هي التي اقترحت وأصرت على أن ترافقني أينما ذهبت ، لم تكن تفكر في شيء سوى تلازمنا معاً ، كان حبّاً غبياً أنانياً . . »

ساد وجهها شحوب ظاهر ، وسحبت يدها من يده ، وقالت :

- « لسوف أخرج الآن . . »

- « لماذا ؟؟ »

- « سأعود عندما تنتهي من التفكير فيها »

- « أتغارين ؟؟ »

- « إنني أيها الحبيب إياسو أبغض مثل هذه المقارنات حتى ولو كانت في صفي . . أنني أرفضها بكل شدة ، إن ما يؤلم المرأة أحياناً أن يكون لزوجها تجارب ، وأن يعقد المقارنات . . »

قال إياسو وقد شده حديثها :

- « لقد كانت زوجتي »

- « ليكن . . »

- « هل تضايقت يا حبيبتي ؟؟ »

- « بماذا تريدني أن أجيب ؟ »

- « بصفح جميل منك . . لن أعقد المقارنات مرة أخرى . . أعدك بذلك . . »

قالت وقد دمعت عيناها :

- « إنها تتغنى بقصائد الغزل فيك أينما ذهبت ،وتملأ الردهات والقصور بحبها لك . . ترى ماذا كان بينكما ، إنه شيء لا يطاق . . »

قال إياسو :

- « لم أتصور أن تفعلي ذلك . . إن عقلك وتفكيرك السليم يجعلني أظنك فوق الغيرة والغضب . . »

قالت وهي تبكي :

- « إنني امرأة يا إياسو . . لا تنسَ ذلك . . إن شبحها الآن يقف في مواجهتي متحدياً ساخراً . . إنه يبدو وكأنه يقول لي أشياء كثيرة تملأ قلبي بالحزن . . »

قال إياسو وقد اقترب منها وأمسك بكفيها :

- « لسوف أقترب منك أكثر ، حتى لا يكون بيننا مكان لشبح دخيل ، إن اتحادنا معاً سوف يعتصر كل أذى ، ويتركه بلا حياة . أي حبيبتي إنني أعيش معك أحلى أيامي . وأجمل أمنياتي . . إن هناك معالم بارزة في حياتي لا تنسى . . اختياري امبراطوراً . . واعتناقي الاسلام ، وزواجي منك . . »

وابتسمت في سعادة برغم القطرات الصغيرة المتعلقة بأهدافها . وتمتمت في شبه غيبوبة :

- « إياسو . . أيها الحبيب الغالي . . »

يا له من رجل !!!

إنها لتحب فيه تمرده وقلقه وعاطفته الجياشة ، وتحب فيه ثورته وهدوءه ، ورضاه وسخطه ، ومزاحه وجده ، إنه طاقة لا نهاية لها من الانفعال والحركة ، إنه وجود قائم بذاته يضج بالحياة ، ويترنم بالشعر ، ويعبر بالفلسفة ، ويستسلم ويتمرد ، ويعلن حبه اذا أحب ، ويبدي كراهيته إن كره . . إنه أنموذج فريد

غريب . . ليس مثل كل الناس . .

- «إياسو . . أيها الحبيب الغالي . . لست أدري كيف أعيش بدونك إذا ما رحلت إلى الجنوب ، وخضت غمار الحرب . . . »

قال معاتباً :

- « أنت التي ترفضين مرافقتي . . »

- « أنت تعلم السبب ؟؟ »

- « ففيم العتاب إذن ؟؟ وماذا أفعل ؟؟ »

- « إنني أتكلم . . أعبر عن أشياء كثيرة تعتمل في قلبي . لا يمكنني التعبير عنها كلما أشتهي . . إنني أريد أن أبقى وأن آتي معك . إنني . . ماذا أقول ؟؟ لا أدري . . إياسو . . إن وجودي معك هو الوجود . . إنني معك يمتلىء قلبي باليقين والإيمان والحب . . إن قلبك الكبير ، وإنسانيتك العالية . . آية من آيات الله . . »

وعاوده الشرود من جديد . فتدلت يداه إلى جواره وقال :

- « كان يرعى الأغنام ، ويلبس جلباباً رخيصاً ، ويأكل أبسط الطعام ، ويشرب من ثدي النعاج . . ويمضي دون حراس أو حجاب . . وليس له قصر منيف . . لكنه كان أعظم من مشى على الأرض ، وخير من تلقى كلمات الله . . هذا هو المثل الأعلى يا حبيبتي . . محرر العبيد . . ورسول السلام والحب والحرية . . والأخ الحنون لملايين البشر في كل مكان وزمان . . محمد »

تمتمت في خشوع :

ـ « صلى الله عليه وسلم . . »

ـ « إنني أسمع المؤذن يدعو لصلاة الفجر . . فليبق هذا الصوت بأمر الله مجلجلاً في الآفاق أبد الآبدين . . هيا الى الماء كي نستعد للصلاة . . ففي رحاب الله يا حبيبتي تسكن روحي ، وينزوي قلقي ، وتبدو الدنيا أمامي وكأنها شيء بسيط للغاية . . وتبدو قوى العالم المادية وكأنها هنا . . . هيا يا حبيبتي لنرطب القلوب بذكر الله . . . »



على الرغم من التكتم الشديد الذي يحيط « تفري » نفسه به ، فإن الظواهر المختلفة تدل على أن شيئاً ما سيحدث . غياب تفري لفترات طويلة في الخارج ، زيارته لأماكن عديدة في المقاطعة وغير المقاطعة ، المقابلات السرية التي تتم في قصره أحياناً وفي الأبرشية أحياناً أخرى ، السهر لساعات متأخرة من الليل ، تدفق العتاد والأسلحة ، وتدريبات الجنود المتصلة . . . ، لا يمكن أن تمر هذه الأمور دون أن تبعث في النفس شيئاً من التساؤ ل والشك .

قال قائل : لأي هدف تمضي هذه الإعدادات الهائلة ؟ فكان الجواب ، إن امبراطورنا سوف يساند تركيا ، وكانت هذه الإجابة مضحكة ، إذ كيف يقدم الانجليز أو الفرنسيون سلاحاً للحبشة التي ستساعد تركيا ؟ إن معنى ذلك أن يرتد سلاح الحلفاء الى صدورهم ، والأدعى الى السخرية أن يقال إن تفري يخدع الحلفاء ، ويمنيهم بالعون في الوقت الذي يعتنق فيه رأي الامبراطور إياسو وتوجيهاته ، ولقد بلغ الاستعداد والنشاط ذروته

في الفترة التي ذهب فيها إياسو للجنوب ، وذهب أبوه الى مقاطعة « والمو » ، وكانت « مـالفن » زوجة تفري وشقيقة إياسو برغم ما تعانيه من نكد وهم وكربات تشك في نوايا تفري وتصرفاته ، إن قلبها يحدثها بأن شيئاً خطيراً على وشك أن يحدث ، وانتهزت فرصة وجود تفري ذات مرة وقالت له :

ـ « ماذا يدور هنا ؟؟ »

ـ « عن أي شيء تتساءلين ؟ »

ـ « الاستعداد للحرب . . »

توترت أعصابه ، وارتجفت لحيتهُ وقال :

ـ « هذا أمر يخصني وحدي ، إنني أنا الذي أحكم ، وأنت يجب ألا تفكري إلا في أمور القصر ، أنت زوجة . . هذا ما يجب أن تفكري فيه »

قالت مـالفن في ضيق :

ـ « إن الحرب لا تخصك وحدك يا تفري . إنها مشكلة تهم الجميع ، وتتعلق بمصيرنا كلنا . »

قال في ضيق مصطنع :

ـ « إن أخاك هو الذي يجر علينا هذه المتاعب ، إنه يزعم أنه داعية سلام في الوقت الذي يحاول فيه أن يشترك في حرب عنيفة في صف تركيا ، البلد الذي يبعد عنا آلاف الأميال ، ونحن إزاء ذلك مضطرون للاستعداد مخافة أن يدهم البلاد عدو غادر ، إن هذا الجيش الذي أعده هو لحماية عرش أخيك ، والذود عن حرمات البلاد . . »

ـ « لكنك يا تفري أيدت وجهة نظر إياسو »

ـ « كنت مضطراً لذلك حتى لا يحدث ارتباك في سياستنا الدولية ، ولكيلا يحدث شقاق بين صفوف الأمة . . »

وصمت برهة ، ثم قال :

ـ «إن مايجري هنا يعرفه أخوك ، إننـا نؤدي المهمة نفسهـا التي يقوم بها في الجنوب ، لكي نشترك في حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل ، إن إياسو متعصب للترك أشد التعصب ، مع أنه يزعم أنه داعية حياد وتسامح وإخاء . . »

ورأى تفري الشك في عيني « مـالفن » ، وهو يعلم أنها لا تحبه ، بل تحتقره ، ويعلم أنها لا تصدقه ، فهو يعبر في أغلب الأحيان تعبيراً عكسياً عما يعتمل في ذهنه وقلبه ، إن أعماقه تبدو كعالم أسود غامض ، لا تتضح فيه نوايا ، ولا يبين فيه بصيص ضوء ؛ ونظرت هي الأخرى الى وجهه فلم تستطع أن تقرأ سطراً واحداً من تعبيراته . . لكن الشك يؤ رقها . فهي تثق في ظنها ثقة تبلغ حد اليقين . . ؛ إن تفري سوف يقدم على خيانة خسيسة . .

إنه حليف وفيّ للشيطان ، يبيع أغلى القيم ليحقق أهدافه الدنيئة ، ويدوس كل المقدسات في سبيل الوصول لمكانته ، لكني أبحث عن دليل . .

ولم يغب عن فطنة « تفري » أن بذور الشك قد نبتت في قلب « مـالفن » ، إنه يعرفها جيداً ، ويعرف أنها سوف تتحـرى الحقائق ، وتبذل أقصى ما تستطيع لكي تعرف الحقيقة ، إنها دائماً تبحث عن إدانة جديدة لانحرافه وحقده وتآمره ، ومن ثم فكر

في أن يضربها في الصميم . .

عند تناول وجبة الافطار في الصباح التالي ، تذوق تفري شرائح اللحم المشوي ، وبان الكدر على وجهه ، وتمتم في حقد ظاهر :

ـ « هذا الطباخ الملعون يحرص دائماً على إغاظتي فيزيد كمية الملح في الطعام ، ولا ينضج الطعام كما يجب . إليّ به حالاً . . »

هرول الخدم ، وأحضروا الطباخ الذي كان يجري ويلهث وينكفىء ، ثم ينهض ليتعثر من جديد ، وواجهه تفري بنظرات قاتلة حادة ، وصاح غاضباً :

ـ «أيها الأحمق، لقد سامحتك عشرات المرات . . »
ـ « مولاي . . »
ـ « إخرس . . هاتوا الكرباج »
وانهال تفري على وجهه وجسده ضرباً مبرحاً ، والمسكين يئن ويصرخ ويتوسل ، ويقبل الأرض ، ويمرغ وجهه الدامي الذي شوهه السوط ، دون جدوى ، وما أن شعر تفري بالارهاق ، حتى أقبلت « مالفـن» وأمسكت بيده وهي تقول في ضراعة :

ـ « قلت لك إرحمه يا تفري . . إنـه مسكين . . ألا تسمعني ؟؟ »

ـ « هذه هي الطريقة الوحيدة التي ترغمهم على الإخلاص والتروي في أعمالهم ، إنني أعرف أن السوط وحده هو الذي

يصلح أحوالهم . . ومع ذلك فقد قررت قراراً لا رجعة فيه . . يجب أن يرحل هذا الأحمق عن قصري منذ الغد . . ولسوف أسافر اليوم ، وأعود بعد ثلاثة أيام . فإذا حضرت من سفري ورأيته هنا ، فلن يكون له عقوبة سوى القتل . . مفهوم ؟ »

هتفت مالفن :

- « تفري . . »

- « انتهى الأمر ، لقد اتخذت قراري ، ولن أتراجع ، إن تفري لا يعرف التراجع . أغرب عن وجهي أيها النجس . . »

وساد السكون بعد أن خرج الطباخ المسكين وهو يئن ويتوجع ، وتبللت أهداب « مالفن » بالدموع ، وشعرت بحزن عميق أفقدها الرغبة في مواصلة تناول الطعام ، وقالت بنبرات حزينة :

- « لقد خدمك فترة طويلة ، وكنت تحبه وتعطف عليه ، ولم يقصر في حقنا ، وله زوجة وأطفال عديدون ، ألا تغتفر له هذا الخطأ يا تفري للمرة الأخيرة ؟؟ »

- « مستحيل . . »

- « إنني أرجوك . . »

قال ساخراً :

- « لم هذا العطف الظاهر ؟؟ ألمجرد إخلاصه ومهارته وفقره ؟؟ ليس لي دخل بكل هذه الأمور ، إنني أنظر لهؤلاء الناس من وجهة نظر واحدة لا تتغير ، هل يصلحون للعمل أم لا ؟؟ وفي رأيي أن هذا الطباخ لا كفاءَة له ، ومن ثم فلن تستطيع قوة في

الوجود أن تجعلني أتخلى عن قراري . . ولسوف أحضر لك من هو أكفأ وأخلص منه . . والآن دعي هذا الأمر يا « مـالفن » ، لا يصح أن يشغل من وقتنا وتفكيرنا أكثر من ذلك . . »

وغادر تفري القصر بعد فترة ، ولم تستطع « مـالفن » أن تنسى ما حاق بذلك الطباخ المسكين المدعو « يوحانس » ، فاستدعته على عجل ، فقدم ممزق الوجه ، دامع العينين ، مـذعور النظرات ، وهمست :

- « إجلس يا « يوحانس » .
- « عفواً مولاتي . . لقد أخطأت خطأً جسيماً . إنني أستحق كل ما حدث . . »
- « أنت تبالغ أيها المسكين . . إن ما حدث ليس خطأً بالغاً كما تتصور ، ثم إن كمية الملح ليست بالدرجة التي تصورها تفري ، إن تفري ثائر الأعصاب ، لم ينم الليلة كما يجب . . »
- « إنني أعرفِ مولاي جيداً . . إنه لن يتراجع عن قراره »
- « وهذا ما يؤ رقني ويتعسني أيها المسكين « يوحانس . . »
- « لسوف أرحل غداً الى أديس أبابا . . لم يعد لي عيش هنا . . إن الله لن ينسى أحداً . . »

قالت وقلبها يتمزق من الأسَى :

- « ولم لا تبق في هذه المدينة ، فقد أستطيع إقناعه بعد سفره ! . . »
- « إنني أعمل معه منذ مدة طويلة . . إنه لن يغفر . . »

طأطأت رأسها مكتئبة وقالت :

ـ « أعتقد أنه ليس لديك ما يكفيك من المال . . »

وصمت الطباخ بينما هرولت « مالفـن » الى الداخل ، ثم عادت بعد قليل وفي يدها مبلغ من المال يكفيه وزيادة ، ثم قالت :

ـ « خذ هذه النقود ، ولسوف أعطيك مكتوباً لكبير الخدم في قصر الامبراطور كي يجد لك عملاً هناك . . ألا تحب أن تعمل لدى أخي إياسو . . »

ـ « مولاتي ، إن امبراطورنا العظيم إياسو هو هدية السماء إلينا . إننا نحبه لدرجة العبادة . . »

ثم انحنى وخطف يدها وقبلها . .

وانحنى مزمعاً الخروج ، لكنه توقف لدى الباب ، ثم عاد :

ـ « مولاتي . . »

ـ « ماذا تريد يا يوحانس المسكين ؟؟ »

طأطأ رأسه ، وقال وهو ينتفض من الاضطراب .

ـ « أعرف أن تفري زوجك . . وإياسو أخوك . . وأنك سوف تعانين العذاب بين الوفاء لزوجك ، والتضحية بنفسك ، والمحافظة على أخيك امبراطور البلاد . . . »

ـ « ماذا تريد أن تقول ؟ . »

ـ « إن عطفك البالغ ، قد جعلني مديناً لك بحياتي ومستقبلي . . »

ـ « تكلم يا يوحانس . . »

فشرد الطباخ لبضع لحظات ، ثم قال :

ـ « كان ذلك في الأسبوع الماضي ، وقبيل منتصف الليل طلب مولاي الأمير تفري أكلة خفيفة له ولبعض الرسميين المجتمعين معه من رجال الدولة . . لم يتنبهوا لوجودي ، كانوا منهمكين في التفكير والتخطيط . . لقد تأكد لي أنه خطير . . »

ـ « ماذا ؟؟ تكلم . . »

ـ « إنه الغدر يا مولاتي . . »

ـ « الغدر ؟؟ »

ـ « أجل . . لم أكن أتصور أن « تفري » يخطط لحرب خاطفة يحتل بها « أديس أبابا » ، ويقضي على إياسو الطيب ، ويقيم من نفسه امبراطوراً مكانه . »

هبت مالفن واقفة ، وقدمت نحو الطباخ ، وأمسكتْ بكتفه ، وهزته في انفعال وتوتر ، وقالت :

ـ « إن ما تقوله يحمل معنى خطيراً . . خطيراً للغاية . . أواثق أنت مما تقول ؟ »

ـ « كل الثقة يا مولاتي . . لم أقل ما قلت الا لأرد لك بعض الجميل ، ولأحمي البلاد من فتنة دموية ، قد يراق فيها دماء عشرات الألوف من الرجال والنساء والأطفال ، إن امبراطورنا العظيم إياسو . . جدير بكل تضحية . . وأنا على استعداد لأن أضحي من أجله بحياتي . . »

دارت الأرض بالأميرة « مالفـن » ، فألقت بنفسها على الكرسي محطمة الروح ، خائرة القوى ، هذه ليست حياة ، إنها

غابة للذئاب طافحة بالغدر والخديعة والكذب والأنانية . . هذا الخائن المأفون ، يرقد الى جواري ، ويأخذني بين ذراعيه القذرتين ، ويهمس في أذني بعبارات الغزل الرقيقة ، في الوقت الذي يدبر المكائد فيه لأخي ، ويعد له خنجراً مسموماً كي يطعنه من الخلف ، ما هذا الذي يجري ؟؟ مسكين إياسو الطيب . إن قلبك يمتلىء بالحب والرحمة والولاء لبني البشر ، إن تفري وأمثاله لا يستحقون سوى الحبال التي يجب أن تلتف حول أعناقهم لتزهق أرواحهم . هذه الأفواه القذرة لا يصح أن تسمع لكلمة واحدة من ترهاتها يا إياسو ، وهذه الأيدي الملوثة بالعار والخديعة ما كان لك أن تصافحها يا إياسو ، وهذه العقول المنتنة ما كان لك أن تستعين بها أو تحكّمها في رقاب العباد المساكين . . يا إياسو . لقد حذرتك يا إياسو ذات مرة ، وطلبت منك أن تفرق بيني وبين هذا الشيطان . . لكنك أبيت يا إياسو . . إن سيوف الغدر تتوثب لتنقض عليك ، وتدمر ملكك ، وتنتزع منك حقك الشرعي ، وتقضي على أحلامك في العدل والحرية والمساواة والحب . . أنت تزرع الورود الزكية في أحواض الجيف والمستنقعات الآسنة يا إياسو . . لقد كان عليك أن تنظف أرض الحبشة من الشوك والكذب والنوايا الخبيثة قبل أن تعلق مبادئك السمحة . . أيها المسكين ليتني أطير اليك الآن ، لأضع بين يديك الصورة السوداء لمجتمع الذئاب البشرية التي تتلوث أياديهم بالدم والخيانة . . .

وجاءها صوت الطباخ يوحانس :

ـ « الوداع يا مولاتي . . »

ـ « يوحانس . . انتظر . . هل أستطيع أن أحملك رسالة ؟ »
ـ « قلت لمولاتي إنني على استعداد أن أضحي بحياتي . . »
وهرولت الى الداخل ، وتناولت ورقاً وقلماً ، وأخذت تدبج رسالتها على عجل ، وتشرح فيها الخطر المحدق بالامبراطور وبالوحدة الوطنية ، والمؤامرة التي يدبرها تفري ورجال الكنيسة ، وبعد أن خرجت ناولته الرسالة قائلة :

ـ «يجب أن تحافظ على هذه الرسالة يا يوحانس كما تحافظ على حياتك . .
حذار أن تقع في يد أحد وإلا ضعنا ، وضاع كل شيء . . »

ـ « مولاتي . . لقد تطوعت بكل شيء . . السياط لم تزل تلهب جسدي ، والحقد الأسود يأكل قلبي لم يكن تفري طول حياته مسيحياً طيباً بل كان يتصرف كوثني عربيد لا يؤمن بإنسانية إنسان . . »

ـ « ولكن كيف أعرف أن الرسالة وصلت القصر الامبراطوري . . »
ـ « سأعود لك بالرد . . . »
ـ « أتعني ما تقول يا يوحانس ؟ . . »
ـ « لسوف آتي خفية . . وأتسلل في الوقت المناسب . . لقد نذرت نفسي للحفاظ على العرش والأمة . . وليحفظنا الله . . . »

* * *

قرأ تفري الرسالة ، وجسده ينتفض من الغيظ ، ووجهه

ينبي بكدر شديد ، وظل يقرأها لمدة طويلة ، على الرغم من قصرها وإيجازها ، كانت تكشف عن رأي زوجته فيه ، وتعليقاتها على المؤامرة المتوقعة، وخوفها على مستقبل أخيها وعرشه ، ثم هدأت أعصابه ، وزايله انفعاله ، وقال :

- « رائع يا يوحانس . . لقد نجحت خطتنا تماماً . . كنت أدخرك لمثل هذه المهام الخاصة الخطيرة . . مهام المستقبل والمصير . . لقد كان الأنبا ميتاوس على حق حينما أكد لي أنه يمكنني الاعتماد عليك في أدق الظروف وأحرجها . . إنك مسيحي حق ، تعرف واجبك نحو الكنيسة والوطن ، وتدرك الخطر الأكبر الذي تجتازه بلادنا . . والآن يجب أن تختفي تماماً عن الأنظار يا يوحانس . . لا يصح أن يراك أحد من حاشية قصري أو الخدم ، وإلا فسد كل تخطيط لنا . .إن كل معارفك يجب ألا يروك . . لسوف تذهب الى أحد الأديرة خارج المدينة كي تختفي فيها لمدة عشرة أيام ، ثم تظهر ومعك الرد على رسالتها . . الرد الذي سوف أكتبه بيدي ، محاولاً جهدي ألا تشك مالفن في صحته . . وبهذا يرتاح بالها ، ويتأكد لها أنها قد كشفت النقاب عن المؤامرة الخطيرة ، وأن أخاها لن يفاجأ بضربتنا ومن ثم يستطيع أن يفسد تدبيرنا ، ويقبض على نواصينا ، ويسوقنا الى ساحة الإعدام . . كنت أعرف أنها تكرهني . . كانت حياتي معها ، وحياتها معي سلسلة متصلة من الأكاذيب والمراوغة والتظاهر ، لقد تزوجتها بدافع سياسي بحت . . إنني أحتقر أفكارها وأفكار أخيها إياسو . . إنها ليست لي ولست لها . . ومن ثم فإن نهايتها ستكون تعسة أيها القس المخلص « يوحانس » . .

لسوف تكون مكافأتك كبيرة . . ستكون ضابطاً كبيراً في الحرس الامبراطوري . . لقد أثبت نجاحك في عشرات المهمات التي كلفتك بها ، والتي كلفك بها رجال الكنيسة من قبل . . إنك شخصية فذة نادرة . . هذا ما أردده عنك دائماً . . ومعذرة إن كانت سياطي قد آلمتك . . لقد خيل اليّ لحظتها أنني لا أضربك . . بل أضرب إياسو الملعون . . هذا الأبله الذي لا يفارق شبحه خيالي . . لقد آلمتك أيها « الطباخ » المسكين . . لكن كان لا بد من ذلك حتى نلعب دورنا في مهارة ، فتنجح المسرحية ، وتؤثر في الجماهير . . أليس كذلك ؟؟»

هز الطباخ يوحانس رأسه باسماً وقال :

ـ « تحت أمرك يا مولاي الامبراطور !! »

ـ « لم أصبح امبراطوراً بعد ، بدليل أنك لم تزل طباخاً حتى الآن ، لا تتعجل الأمور يا يوحانس . . إنني لم أزل « الرأس تفري » حاكم إحدى المقاطعات لا غير . . »

انحنى الطباخ ، وتراجع الى الخلف ، وتمتم :

ـ « الى اللقاء أيها الرأس المفكر تفري . . الى اللقاء . . »

* * *

حينما تلقت « مالـفن » الرد على رسالتها ذات مساء ، كادت تجن من الفرح ، لقد تناست مركزها ، واختطفت يد « يوحانس » وقبلتها قائلة :

ـ « إنني أقبل اليد الطاهرة التي أنقذت مستقبل الحبشة ونجّت الحبيب إياسو . لقد استطعت أيها الرجل الطيب أن تسدد

طعنة نجلاء الى قلب الخيانة والخسة والنذالة . . »

قال يوحانس :

- « إنني أؤدي واجبي يا مولاتي ، وما كان يصح أن تقبلي يـد عبدك المطيع . . ولسوف أذهب الى القصر الامبراطوري في أديس أبابا ، فإذا أتيت يا مولاتي الى هناك في زيارة فلتذكري عبدك المطيع يوحانس . . لن تتعبي في البحث عنه . . فسيكون هناك في زاوية من زوايا القصر في المطبخ . . »

صافحته في ود ، وهمست :

- « لشد ما يؤلمني فراقك أيها العزيز . »

- « الى لقاء قريب يا مولاتي . . . »

- « الى اللقاء يا يوحانس . . تمهل . . وانظر الى الطريق جيداً . . فإن حياتك ثمينة ، ويجب أن تحافظ عليها ، وعندما تنتهي الأزمة فلسوف ترى من إياسو أسخى مكافأة حلمت بها طول حياتك . . »

قال الطباخ :

- « لقد أديت واجبي ، وأرضيت ضميري ، وهذا في نظري أعظم مكافأة . . »

وتوارى عند الظلام الذي يحيط بالقصر ، وغاص في المجهول ، وأخذت « مالفـن » تحدق خلفه وهو يبتعد ، وقلبها يدق في فرح مختلط بالحزن الشفاف ، لشد ما أثر فيها إخلاص ذلك الرجل المسيحي الطيب .

وعادت « مـالفن » الى سريرها هادئة البال ، وسرعان ما

راحت في سبات عميق ، مليء بالأحلام المبتهجة ، والأماني الحلوة . .

لم تكن تعلم أن هناك رصاصة انطلقت في الظلام ، فأصابت من الطباخ « يوحانس » مقتلاً . . . وسقط يسبح في بركة من الدماء . . قال الرأس تفري لنفسه وقد بلغه النبأ المؤسف .

ـ « كان من الضروري أن أقتله ، لقد كشفت له النقاب عن بعض الأمور العائلية الحساسة، كانت معه ورقة يستطيع أن يلعب بها في أي وقت ، إن العلاقة الغريبة بيني وبين زوجتي مالفن يجب أن تظل طي الكتمان بالرغم مما يشوبها . . ثم إن يوحانس رجل خطر . . ويبدو أنه جاسوس للكنيسة عليّ . . لا شك أنه كفاءة ممتازة ، لكنه ماكر ماهر قد يستغل ذكاءه ضدي في أية لحظة ، إني أشعر بالرعب كلما تصورت أن هذا الرجل الخطر ، يعيش في قصري ، ويقدم لي الطعام كل يوم . . أريد أعواني أن يكونوا على جانب متواضع أو متوسط من الذكاء ، أما أولئك الذين يتميزون بذكاء حاد فإن أكرههم ، بل أخافهم . . رحمك الله يا يوحانس المسكين . . »

* * *

وفغرت مـالفن فاها دهشة في الصباح عندما علمت نبأ مصرع « يوحانس » المسكين . . لم يستطع ذهنها أن يتصور كيف ولماذا حدثت الجريمة ، فقالت في حزن وحيرة وتوجس : « فليرحمك الله يا يوحانس المسكين . . »

١٣

كانت الخطة الجهنمية التي وضعها الفرنسيون والانجليز مع تفري ورجال الكنيسة خطة محكمة ، فعندما تحركت قوات تفري جنوب « أديس أبابا » أشيع أن هذه القوات تزحف لتلحق بجيش الامبراطور إياسو لمؤازرة تركيا ، واتخذت طرقاً ملتوية ، وانحرفت إلى بعض الطرق الجانبية بغية التضليل والإبهام ، مع أن هذا المسلك قد أرهق قوات تفري بعض الشيء ، وأضاع عليهاعدة أيام ، وانقضت الحملة الكبيرة وعلى رأيها تفري على العاصمة في منتصف ليلة حالكة السواد : وسرعان ما انتشر الغازون في كل مكان ، واحتلوا الأماكن الاستراتيجية الحساسة ، وحاولوا محاصرة قصر الامبراطور الغائب ، وكانت الوسيلة التي اتبعها تفري في السيطرة ، واعتقاله لكبار الشخصيات والقادة وعلماء المسلمين ، قد أظهرت دون غموض النية الخبيثة وراء تلك الحشود الداهمة ، فتصارع الرجال المخلصون ، واختطفوا ما استطاعوا اختطافه من سلاح وذخيرة ، ونشبت المعارك اليائسة الضاربة ، وسالت الدماء في الشوارع ، وتحولت المدينة إلى

عالم مختلط مضطرب ، تاهت فيه الأفكار ، وتوالت الضربات العشواء ، كان أنصار إياسو يهبون من نومهم ، وينطلقون الى الشوارع ويقذفون بأنفسهم وسط المعمعة وجنود تفري المنظمون يتحركون طبق خطة مرسومة، لاقت الكثير من الاهتزاز والارتباك إزاء عنف المقاومة التي يبديها الرجال المحاصرون ، وهرول تفري إلى المطران الأنباميتاوس ، وقال في حزم :

ـ « سيدي المطران ، إن أنصار إياسو في النزع الأخير ، والمدينة برغم ما فيها من معارك متناثرة يائسة ، إلا أنها في قبضتنا الآن ، وإنني أطلب منك الآن ما اتفقنا عليه . . أعني إصدار بيان باسم الكنيسة ورجال الدين بعزل إياسو فوراً . . سيكون بيانك هو الوثيقة الشرعية ، والورقة الرابحة التي تذيعها على الملأ ، ولا بد أن يكون البيان الهام مشتملاً على الأسباب والحيثيات القوية ، ولسوف يبادر قناصل الدول الغربية ، وخاصة فرنسا وانجلترا، بالاعتراف بالوضع الجديد وسحب اعترافهم السابق بحكومة إياسو وسلطاته . . »

قال ميتاوس :

ـ « إن عزل إياسو يقتضي تعيين امبراطور آخر ، له صفة شرعية . . »

ـ « إذن فأنت تعترض على تعييني امبراطوراً . . »

ـ « يجب أن تسير الأمور في حذر يا تفري . . إنك من الوجهة الشرعية لا تستحق ذلك ، وانتهاك الدستور في مثل هذه الأوقات الحرجة قد يفسد كل مخططاتنا . . »

قال تفري في ضيق :

ـ « هل هذا ما اتفقنا عليه ؟؟ »

ـ « إن الانجليز موافقون على عزل إياسو ، لكنهم لم يوافقوا بعد على تنصيبك امبراطوراً . . »

زمجر تفري قائلاً :

ـ « إنني على استعداد لأن أتلف كل شيء الآن . . »

قال ميتاوس :

ـ « لن تفعل ذلك . . ولن تستطيع . . »

ـ « معذرة أيها الأب المبجل . . إن الانجليز ما زالوا يشكون في نواياي ، لكني أكدت لهم أن تعاوننا معهم سيكون على أعلى مستوى ، وفي أغلب الأمور السياسية الحساسة . . إنهم . . »

قاطعه ميتاوس قائلاً :

ـ « إن الوريث الشرعي للعرش لا بد أن يكون من نسل منليك . . »

ـ « من ؟؟ »

ـ « الأميرة « زوديتو » ابنة منليك ، وخالة إياسو . . »

ـ « تريدون أن تأتوا بزوجة غوغسا امبراطورة ؟؟ »

ربت ميتاوس على كتف تفري في ود وقال :

ـ « لا تتعجل الأمور يا فتى الكنيسة المحبوب . . يجب أن نمضي في تدبر وحكمة ، فبلاد الحبشة شاسعة ، والملايين ليسوا في صفنا حتى الآن ، ولا يغرنك سقوط « أديس أبابا » ، فلسوف ينتفض المسلمون خاصة ليدافعوا عن الرجل الذي أمنهم بعد

خوف ، وأطعمهم من جوع ، وبنى لهم المساجد ، وحقق لهم الحرية والاستقرار والكسب . . ولسوف يكون توكيلك الحكم دفعة واحدة غلطة كبرى ، إن تلك المخالفة الدستورية ، قد تثير العطف على أسرة منليك ، وقد تفسد الكثير من تخطيطنا . . فلتكن زوديتو امبراطورة . ولتكن أنت كفيلاً لها ، وقائداً عاماً للقوات المسلحة ، وستكون القوة العسكرية والسياسية كلها في يدك ، ولن تكون زوديتو سوى رمز . . إن هذا الرأي قد أقره العقلاء من رجال الكنيسة وأصدقاؤنا الإنجليز والفرنسيون . . »

قال تفري في ضيق ظاهر :

- « أهذا هو الرأي الأخير . . »
- « ولا رأي غيره . . »

أدرك من بالقصر الامبراطوري حقيقة ما يجري ، فهبت الامبراطورة ابنة أمير هرر ، وارتدت ثيابتها على عجل ، وهرولت نحو باب القصر ، إن الثعابين قد داهمت « أديس أبابا » في غيبة زوجها الامبراطور ، هؤلاء الجبناء الأنذال ، قد نقضوا العهود ، وأخلوا بواجبات الشرف ، ليس هذا غريباً على تفري الملعون ، ألا تأتي الضربة الغادرة إلا من يدك أيها الذئب يا زوج شقيقة الامبراطور . . لماذا يفعلون ذلك يا إياسو ؟؟ ألأنه دعا إلى المحبة والتسامح والحرية ؟؟ ألأنه قد وقف في وجه أطماع رجال الدين ، وتعصب الكنيسة ، وانحراف المبشرين ، وتدخل الأجانب المستعمرين ،؟؟ أم لأنه أعلن عقيدته الشريفة التي ارتضاها عقله ؟ واستجابت لها فطرته ، وتشوقت إليها عاطفته ؟؟ هم

يتآمرون عليك يا إياسو لأنك رجل . . حر . . شريف . . مؤمن ، وهم يـريـدون جيـلاً من العبيـد الخـانعين المستسلمين المتعصبين . . لسوف أخرج إليهم أيها الحبيب إياسو . وأصدهم عن بابك الكريم حتى آخر رمق . . » واختطفت قطعة من قطع السلاح . . فاعترضها أحد ضباط القصر :

- « مولاتي . . إلى أين . . »

- « لأسحق رؤوس الثعابين . . »

- « إننا نؤدي واجبنا . . »

- « إن إياسو لن يسقط . . »

- « إن إياسو لن يسقط . . »

- « سنفديه بأرواحنا . . »

- « وتفري لن يرتفع . . . لن يرتفع مطلقاً . . سيظل ملتصقاً بالطين . . . ذلك الذي خان أواصر الود والقربى . .

- « لن يدخل القصر إلا على أشلائنا يا مولاتي . . »

- « ولسوف يبقى إياسو على الرغم من مكائدهم رمزاً لمجد الحبشة ، وعنواناً للحب والسـلام ، وتعبيـراً رائعاً عن دين الله . . . لن ينتصـروا ولـو سـرقـوا الكـرسي من تحتـه . . لن ينتصروا ولو تسلموا تقاليد الأمور . . »

ثم صاحت بأعلى صوتها :

- « أيها الرجال . . دافعوا عن حرياتكم ، وعن دستوركم . . الموت لأعداء الأمة . . »

وأخذت تطلق الرصاص إلى جوار الضباط والجنود الذين

يدافعون عن القصر ، كانت جموع غفيرة مغبرة السحنات ، تزحف كالذئاب الجائعة صوب القصر ، كان عدد المهاجمين يفوق عدد المدافعين مئات المرات ، وسرعان ما أخذ المهاجمون يتسلقون أسوار القصر ، ويتسللون بين أشجار الحديقة الكبيرة ، وبعد فترة من الصراع الدامي الرهيب ، كان القصر يغص بالمتآمرين ، بينما تناثرت جثث الشهداء في ساحاته وأروقته وعلى الأسوار ، وصاحت الامبراطورة ، والدموع تغرق خديها :

- « أيها اللصوص الأنذال . . أُخرجوا من بيت الأمة . . أيها المتسللون لن تنتصروا . . »

ثم خرت مغشياً عليها . .

وحينما أفاقت من إغماءتها ، وقعت عيناها على الوجهِ الكئيب الذي تمقُتُه أشد المقت .

- « أيها الرأس القذر عليك اللعنة . . »

قال تفري باسماً :

- « إطمئني لن يمسك سوء ، ولن يصاب إياسو بأذى ، لا تنسي أنه أخي . . »

- « أعرف جيداً أنك صادق الوعد ، وأنك ترعى حرمة الأخوة . . تفري . . أنت أخبث من أنجبت هذه الأرض . . »

انصرف عنها مهتاجاً ، لكنه تمالك أعصابه ، إن هناك من المهام الجسام ما لا يصح أن ينساه ، إن احتلال العاصمة جزء بسيط من المخطط الرهيب ، والمعركة الحاسمة لم تنتهِ بعد ،

يجب ألا يفكر في غير ذلك ، لسوف يأتي اليوم الذي ينتقم فيه من كل هؤلاء الحالمين المثاليين الذين تمادوا في حماقاتهم . . . إن إياسو لم يزل في الجنوب ، ومعه جيش غير قليل العدد ، وميكائيل أبوه ، ما زال يحكم مقاطعة « والو » والمعركة قد بدأت . . وبيان ميتاوس قد صدر بعزل « إياسو » وتولية « زوديتو » امبراطورة ، وتفري قائداً عاماً للجيش ، وكفيلاً للامبراطورة ، وقناصل الدول الضالعة في المؤامرة قد أعلنت اعترافها ، بالوضع الجديد ، ورجال الجيش الغادر ، وأتباع الكنيسة ينبتون في كل مكان ، ينثرون الرعب ، ويقضون على الشرفاء . .

قال تفري لميتاوس :

ـ « لقد نفذت الخطوة التالية ، أرسلت رسالة إلى « ميكائيل » في « والو » موقعة باسم أحد أصدقائه المخلصين بالقصر ، وأخبرته أن أعداء الامبراطور إياسو على وشك أن تسقط العاصمة في أيديهم ، وطلب منه أن يبادر بجيشه على أية صورة ، كي ينقذ العاصمة ، وبهذا سيتحرك ميكائيل قبل أن يكمل استعداده ، وسيسير في الطريق الخطر الذي نصبنا له الكمائن فيه ، وسنتصيد رجاله وهم في حالة من الإعياء وعدم التوقع . . لسوف يخطط ميكائيل للمعركة على أساس أنها في العاصمة ، ولسوف تربكه المباغتة ، حينما يجد نفسه محصوراً بين جبلين ، ونيران مدافعنا تنصب عليه من أعلى ومن الخلف ومن أمام : فضلاً عن أن ما نملكه من أسلحة حديثة كثيرة ، سيحسم الموقعة لصالحنا . . »

قال ميتاوس :

ـ « حسناً . . كونوا على حذر ، إن إحكام تدبيرنا ، وتنفيذ

الخطة بحذافيرها سيضمن النصر ، وأي خطأ في التنفيذ قد يكلفنا الكثير ، وربما حياتنا أيضاً . . فإذا ما سقطنا في يد إياسو أو أبيه فلن يرحمنا أحد . . »

وبدت العاصمة كئيبة حزينة ، يلفها الصمت والرعب ، وينبث فيها الغزاة بعيون يقظة تبرق بالشر ، فلا يكادون يلمحون رجلاً تحوم حوله شبهة من شك حتى تنهال نيرانهم عليه ، وبيوت المسلمين قد دمرت وقتل من فيها من الرجال والنساء والأطفال ، إن تفري لا يعرف الرحمة ، وأوامره صارمة لا يتردد أحد في تنفيذها وإلا كان مصيره الموت .

وأخذت أجراس الكنائس تدق معلنة النصر الكبير . . لقد سقطت العاصمة ، وسقط إياسو ، وسقطت معه كل القيم النبيلة الشريفة التي آمن بها ، ودعا لها ، وها هو الإرهاب بوجهه الكالح الأسود يطل في الشوارع والأزقة والمباني الحكومية ، وفي ضواحي العاصمة ، عادت أيام منليك السوداء ، وعادت الدماء لتخضب التراب الظامىء . . وتهامس المعذبون والمساكين : لماذا ؟ لماذا يا إلّهي ينتصر الشر ، ويفوز الأنذال في المعركة ؟؟ اللهم لا اعتراض على حكمك ، ولا راد لمشيئتك . أنت الحكم العدل ، بيدك مقاليد الأمور . .

قال ميكائيل وهو يشق طريقه عبر الغابات والحقول والقرى الكثيرة :

ـ « كنت طول حياتي لا أثق في هذا الرجل ، ويوم أن زفوا ابنتي

مالفن اليه ، شعرت أنها تساق الى حتفها . كيف عاشت المسكينة معه طوال هذه السنين ؟؟ وقلت لإياسو يجب أن يفتح عينيه جيداً ، وألا يشتت جهوده ، ويفتح لنفسه جبهات متعددة . . لكن إياسو الطيب كان صريحاً جريئاً ، يكره المداراة والنفاق ، وينفذ فوراً مّا يؤمن به . . حاولت إفهامه أن السياسة حيطة ومداراة ويقظة . . وعملية حسابية دقيقة ، ومقدمات تؤدي الى نتائج . . لكن لم يكن حريصاً على شيء بقدر حرصه على أن يعبر عما يعتلج في قلبه من مثل عليا ، وأن يضعها موضع التنفيذ . . كانت مثله العليا فوق الاحتفاظ بالعرش ، ومن ثم فلم يكن يخاف أي خطر ، أويهاب أية تضحية ما دام يؤمن بما يفعل . لقد كان إياسو الطيب حاكماً يحكمه ضميره ، وكان أعداؤه لا يقيمون للضمير ولا للمثل العليا وزناً . . وهكذا خدعوه . . »

قال أحد الضباط الكبار :

ـ « مولاي الأمير . . لقد تعب الجنود ، وأرى أن يلقوا رحالهم هنا حتى الصباح ، كي ينالوا قسطاً من الراحة ،وشيئاً من الطعام. . »

قال ميكائيل :

ـ « هذا مكان غير مناسب ، فالجبال عن يميننا ويسارنا ، فلو داهمنا الأعداء لوقعنا في مأزق حرج . . »

قال الضابط :

ـ « لن يقدم الأعداء الى هنا قبل أيام ، فهم مشغولون بالتمكين لأنفسهم في « أديس أبابا » ، وتلك نقطة الضعف فيهم ، لقد ركزوا اهتمامهم على العاصمة ، ظانين أن الاستيلاء عليها يحسم

المعركة ، ثم لا تنس أن معلوماتكم الخاصة تؤكد ان الحشود المتآمرة تقف حول العاصمة وبداخلها ، وهناك ستكون المعركة الفاصلة . . » .

- «حسناً فلينطلق النفير، وليلق الرجال رحالهم . . »

واضطجع أغلب الجنود ، وسرعان ما راحوا في سبات عميق ، أما ميكائيل فقد خاصم النوم جفنيه ، إنه يخطط للمعركة ، ويتدارس أبعادها ونتائجها ، ومن آن لآخر تثب الى ذهنه صورة صهره الخائن « تفري » عميل الكنيسة ، وربيب الاستعمار ، ومستنقع الحقد والغدر والخيانة . .

وينهال الرصاص كالمطر مع الفجر الوليد ، ويثب ميكائيل من خيمته ، ويخرج إلى الظلام ، إن الموت ينهمر من كل مكان ، ماذا جرى ؟؟ أيمكن أن نكون قد وقعنا في فخ محكم من صنع الداهية الأسود القلب ؟؟

-« مولاي . . مولاي . . إنها لكارثة كبرى ، جموع ضخمة من العدو تحاصرنا من كل ناحية . . »

قال ميكائيل :

- « لقد وقعنا في خطأ جسيم . . »

- « ماذا نفعل ؟؟ »

- « فلننسحب على الفور أعتقد أن الطريق أمامنا مزروع بالأعداء المسلحين . . يا لها من خطة ماكرة . . قلت لكم بالأمس إنه مكان غير مناسب . . هيا . . أصدروا الأوامر بالانسحاب على

الفور . إن ذلك أقل خطراً . . لقد أعطينا العدو فرصة ذهبية . . ثم إن المعلومات التي أتتنا من« أديس أبابا» كانت مختلقة أو مغرضة . . »

أفاق الجنود على دوي المدافع والقنابل ، والمصابيح الكاشفة ، وأخذوا يتراجعون دون نظام تاركين خلفهم الكثير من المؤ ن والعتاد والمهمات ، وكانوا يردون بالمثل بطريقة عشواء ، إنهم لا يرون شيئاً ، وعدوهم يستطيع أن يصب نيرانه في تلك المنطقة المحصورة الضيقة ، وهو واثق ان رصاصاته لن تطيش . . كانت حركة الانسحاب عسيرة . فالأرض المكشوفة تبعد أميالاً كثيرة . والوادي الضيق الذي يسلكه ميكائيل ورجاله ، ما زال هدفاً ثميناً للأعداء ، وما أن أشرق الصباح ، حتى التحم الفريقان في معركة رهيبة ، دافع فيها ميكائيل ورجاله دفاع الأبطال المستميتين ، وفقدوا الكثير من الشهداء ، وتحت أشعة الشمس الدافئة تلفت ميكائيل حواليه . . مازال الجبل يحيط به من يمين ويسار ، والأعداء يتواثبون على مشارف الجبال ، وتتدفق موجاتهم من أمام وخلف ، إنهم أكثر عدداً وعدة ، وأحكم خطة . .

ورفع ميكائيل عينين ضارعتين الى السماء « إلّهي . . إلى من تكلنا ؟؟ إلّهي هؤ لاء هم جنودك المستضعفون ،فلتؤ يدهم بنصرك الذي وعدت ، ولتمنحهم الصبر والقوة ، أو فارزقهم الشهادة في سبيلك ، كي يلقوك أبرارا أحراراً طاهرين ، رفضوا الذل ، وأبوا الخنوع ، ورفضوا سبيل الغدر والخيانة . . »

ماذا يمكن أن يحدث ؟؟

إن المعجزة لم تتحقق ، وسقط الآلاف شهداء على أرض المعركة العنيفة . . وتلفت «ميكائيل» حوله ، فوجد فوهات البنادق تحيط به من كل جانب . . لقد سقط أسيراً . . وبعث بنظراته الى بعيد . . فوجده قادماً . . ذلك الرجل صاحب الوجه الجامد واللحية المتعفرة ، وما أن اقترب منه حتى صاح ميكائيل في وجهه حانقاً :

ـ « لقد فعلتها يا تفري . . »

ـ « معذرة أيها الصهر العزيز . . ان ما نحارب من أجله فوق صلة الرحم والمصاهرة . . إنها إرادة الرب يسوع . . »

قال ميكائيل :

ـ « أتعرف الله جيداً يا تفري؟؟ »

ـ « أتشك في ذلك يا صهري العزيز ؟؟ »

ـ « إن الله لا يحب الفتن والمؤامرات الدامية . . ولا الغدر يا تفري . . »

ـ « هذه وجهة نظر قد أخالفك فيها . . إنها ليست فتناً ولا مؤامرات ولا غدراً . . بل حرب تحرير لابناء المسيحية من براثن الزحف الإسلامي . . لقد تنكر إياسو لدين الآباء والأجداد ، وجر البلاد لحرب لاناقة لها فيها ولا جمل ، كان السكوت على ذلك هو الخيانة . . »

هز ميكائيل رأسه وقال :

ـ « إنكم تفلسفون انحرافكم يا ولدي ، إن ما تقوله باسم المسيحية والمسيحيين ، يمكن ان يقول إياسو مثله باسم الإسلام والمسلمين ، فلماذا لا تنحي ذلك جانباً ، إن الأصل في الموضوع هو

أن يكون الحاكم عادلاً رحيماً بشتى أبناء العقائد المختلفة ، وأن يكون معبـراً عن إرادة الغالبية . . »

قال تفري :

ـ « إن بلادنا مسيحية ، وستظل مسيحية للأبد . . »

تنهد ميكائيل في أسى وقال :

ـ « إن المسيحي الطيب لا يفعل ما تفعله أنت الآن ، ولا يقول مثل تلك الآراء . . »

وخلع تفري غطاء رأسه ، ثم انحنى أمام صهره ، وقال :

ـ« ستكون ضيفي لبعض الوقت . . معذرة ، فليس في إمكاني إطلاق سراحك الآن . . إنني أنفذ إرادة أكبر من إرادتي . . لقد أصبحت « زوديتو » امبراطورة للبلاد . . »

قال ميكائيل :

ـ « لا يهمني ما يحدث ، سيان عندي أن أُلقى في سجن ، أو يضمني قبر ، أو أمضي في شوارع المدينة. . لقد أصبحت حياتي بعدما حدث ، وفي ظل مفاهيمكم السقيمة لا طعم لها . . إن إرادة الله فوق كل إرادة . . »

* * *

وهناك بعيداً في المقاطعة التي يحكمها تفري ، وفي قصره المنيف ، كانت تقيم زوجته « مالفن » ، ورأت تحركات الجيوش الضخمة نحو « أديس أبابا » فخفق قلبها في رعب ، لكنها تماسكت ، وقالت لنفسها : « لاشك أن إياسو قد علم برسالتي ؟ ولا

بد أنه عاد من الجنوب ليحمي عاصمة ملكه ، ولسوف يلقى تفري الخائن جزاء خيانته وعنده ، لسوف يقع في الحفرة التي حفرها لأخي . . »

وأرادت أن تغادر جناحها الخاص . لتلتقي بالخدم والحراس وتستطلع الأنباء في اليوم التالي ، لكن أحد الضباط الواقفين بالخارج لدى الباب قال :

ـ « معذرة يا مولاتي . . إن الأمير قد أصدر أوامره بألّا تغادري جناحك الخاص . . »

ـ « مستحيل . . إنك تمزح ، أيسجن تفري زوجته ؟؟ إن في ذلك إهانة كبرى لي ، وله أيضاً . . مستحيل أن يحدث ذلك . . دعني أمضي . . »

ـ « لا أستطيع أن أخالف الأوامر يا مولاتي . . »

ـ « إنها وقاحة . . »

ـ « أعلم ذلك . . »

ـ « لعلك فهمت الأمر خطأً . . »

ـ « إنها أوامر مكتوبة وصريحة ، ويعرفها كل من بالقصر ، وعلى رأسهم قائد الحرس » .

صمتت « مالفن » برهة . قد طفح قلبها بسيل عارم من الحقد والكراهية والاحتقار :

ـ « إنكم آلات قذرة في يد طاغية لا يرحم . . »

ـ « لا يصح أن تسيئي الى زوجك يا مولاتي . . »

ـ « إنه يريدني رهينة لا زوجة . . »

-« إن أمور الدولة العليا فوق كل اعتبار . . هكذا قالت الأوامر يا مولاتي . . »

صرخت في حدة :

- « أيها الأذلاء . . يا من ترتعون في ذل الخوف والرذيلة والتعصب . . أنتم جيل من العبيد الأخساء . . »

ثم رفعت يدها ، وأهوت بها على وجهه بصفعة قوية ، فبقي الضابط ثابتاً في مكانه دون أن يتحرك . . ثم تمتم في برود :

-« لن أستطيع السماح لك بالخروج . . تلك هي الأوامر . . »

وعادت إلى حجرتها دامعة العينين ، جريحة الفؤاد ، مثلومة الكرامة . . عالم عاصٍ متمرد ، بملؤه الثعالب والذئاب والثعابين ، يلفه الظلام الحالك ، عالم يركع ويجثو في الأوحال ، ويلوث جبينه بالعار والمذلة ، لا أرى جبهة عالية وضاءة تسمو على كل الجباه إلا جبهة الحبيب إياسو . . إياسو الانسان الكبير الذي عرف الطريق الى الله . . أشهد الله أنك على حق يا إياسو العظيم . وأشهد الله ثانية أنني لن أهبك يا تفري اللعين شيئاً من جسدي ، ولن أفتح لك قلبي . . »

١٤

« لك الله يا إياسو ، ثلاث سنوات حكمت فيها الحبشة مرت كالحلم الجميل ، أشرقت فيها الوجوه بالحب ، وفاضت الأنهر بالخيرات ، وابتسمت السماء للورود الندية ، ثلاث سنوات أيها المؤمن الأصيل ، وأنت تحاول جاهداً أن تقتلع الزيف والخداع ، وأن تسحق مشاعر التعصب الأعمى ، وتعطي بسلوكك الحي أروع الأمثلة للحكم العادل ، كنت تعمل في النور ، وتتحدث في النور ، وتبسط الرأي وتناقشه في النور ، أما أعداؤك - أعداء السلام والاسلام - فقد تستروا وراء الظلام ، وأظهروا خلاف ما يبطنون ، وتكلموا بما لا يعملون ، وأخفوا حقدهم خلف الابتسامات الكاذبة ، والولاء المزيف . . مسكين يا إياسو . . . يا نجم الأمل في ليل الحبشة الحالك السواد ! »

هذا ما كان يردده لسان الشعب البائس المغلوب على أمره ، والذي فجع في آماله على حين غرة ، لكن الشعب الأعزل لم يكن لديه غير التأوهات المكتومة والدموع التي يذرفها في ليالي الألم والانتظار ، وانفجر الشعب فجأة . . ؛ تمردت ولايات ، وثارت

« أديس أبابا » ، وخرج الألوف العزل يهتفون باسم إياسو صاحب الحق الشرعي ، وحبيب الملايين. وهزت الهتافات أرجاء المدينة ، وأقضت مضاجع المتآمرين ، وكانت هذه الثورات ردّاً حاسماً على دعاوى المبطلين ، إن الشعب لا يريدهم ، فهو يعرف آثامهم ونواياهم الخبيثة ، والشعب لا يريد غير إياسو الامبراطور الشاب ، الحكيم النظرة ، الساطع المحبة ، العادل في أحكامه ، وبات جلياً أن السكوت على هذه التظاهرات أمر خطر ، يدمر كل ما رسمته يد الفتنة الشيطانية . إن تملق الشعب لم يجد نفعاً ، وتلك الألاعيب والحيل التي قدمها « تفري » لم تنطل عليه ، فإما أن يتراجع تفري أمام رأي الشعب وغضبته الأبية ، وبذلك يفقد سلطانه وأمله وأمل الكنيسة فيه ، وإما أن يمضي في طريقه مهما كلفه ذلك من ثمن ، مدعماً ببيانات الكنيسة ورضاها ، مسنوداً بعون الحلفاء وتدبيراتهم الخبيثة .

وأخذ تفري يحادث نفسه :

ولكنها فرصة العمر يا تفري إن أم الأمبراطور وأباه وأخوته وزوجته كلهم رهينة في يديك . والعاصمة قد سقطت أمام ضرباتك ، والمواقع العسكرية الممتازة ، تسيطر عليها قواتك ، والحلفاء يقدمون اليك ما أنت في حاجة اليه من المال والسلاح والمعونات الفنية . . فلتسحق هذه الثورة الشعبية المضادة يا تفري . . لتفرق شملها . . فما هو الشعب ؟؟ مجموعة من الغوغاء الأغبياء الذين سحرتهم كلمات إياسو المجنون ، وحماسه الأرعن . . الشعب قطيع من الخراف الضالة ، قد تفرقها صيحة بلهاء ، أو تجمعها عصا راعٍ حصيف . . والشعب يا تفري

كأطفال المدارس يصابون بالذعر والهلع أمام إرادة المعلم القاسي ، فينتظمون ويطيعون ولا يهمسون . . والشعب يا تفري لا وزن له في نظر الساسة الحصفاء . . . إنه قوة وهمية ، طبل أجوف لا يصدر عنه إلا الضجيج الأخرق الذي يصم الأذن ، دون أن يغير في الأمور تغييراً فعلياً .

السلاح هو القوة الحقيقية ، والمكيدة هي التي تحرك هذه القوة . إن الملايين العزل يحبون إياسو . . أعرف ذلك . . وهديرهم يملأ الآفاق . . لكن مدافعي سوف تقضي على هذا الضجيج الأرعن ، سوف تقضي على المعنى الأسطوري أو الخرافة . . . سوف تقضي على ما يسمونه الشعب . . »

وأصدر تفري أوامره للجنود في كل مكان : ـ

ـ « يجب أن تحصدوا هذه التجمعات الشعبية بمدافعكم ، نكِّلوا بها أسوأ تنكيل ، لا تأخذكم بهم رحمة ولا شفقة ، فلتحرقوا القرى الثائرة عن آخرها . . لا ترحموا شيخاً أو طفلاً أو امرأة . . يجب أن تنفذوا هذه الأوامر بحذافيرها عن إيمان عميق ، لكي تحفظوا وحدة الشعب وحريته واستقلاله . . سيروا على بركة الله أيها الرجال الشجعان والنصر لنا . . »

واستطار الشر في كل مكان ، وعادت الأرض بما تحمل من آثام وخطايا ، باسم الصليب تداس الحرمات ، وتزهق الأرواح ، وباسم الحرية السمحاء يرسف الملايين في قيود العذاب والأحزان والقهر . . أجل . . سيروا على بركة الله يا جنود تفري ؛ وأشعلوا النار في قلوب المساكين وفي بيوتهم أيضاً . . . .

وحوصرت إحدى القرى الصغيرة في أواسط الحبشة ، وأبدت القرية الصغيرة مقاومة باسلة ، وظلت أعلامها تخفق في الآفاق مكتوب عليها« لا إلّه إلا الله » . . . إستعصت على قنابل تفري ومدافع جنوده ، وتفري ليس لديه وقت يضيعه في جلب الامدادات ، أو الرضى بالمناوشات والمعارك غير الحاسمة ، ومن ثم أرسل وفداً من قبله للقرية ، ليعرف مطالبهم :

ـ « ماذا تريدون ؟؟ »
ـ « إن إياسو صاحب السلطة الشرعية » .
ـ « سنعطيكم من الميزات أكثر مما أعطاكم إياسو . . »
ـ « نحن لا نبيع ولا نشتري . . إنما نطلب الحق . . »

ـ « إذن فلتلقوا السلاح ، ولتنسحب جنودنا ، ولنتعاهد على ألا يتعرض أحدنا الآخر بأذى . . لا داعي لأن يسقط الرجال قتلى في معركة أكبر من قريتكم وقوتكم ، ولتنتظروا لمن يكون النصر . . إن في مقدورنا أن نجلب اليكم عشرات الألوف فيسحقونكم سحقاً . . أيها الشيوخ . . أيها العلماء . . يا رجال الرأي في القرية التزموا الحكمة ، وكفى ما أريق من دماء . . »

ولم تكن إمكانات القرية لتسمح لها بالمزيد من المعارك والضحايا ، فوافقوا على اقتراح تفري ، وانسحبت قوات تفري وأخلدت القرية للراحة والنوم بعد ليال من العذاب والقتل والدماء . . وفي الفجر عادت القوات الغادرة وعلى رأسها تفري ، ودهمت القرية الحصينة على حين غفلة . . كانت المعارك داخل البيوت وفي الأزقة والحارات الضيقة «عليك اللعنة يـا تفري . .

أيها الرأس الغادر الكـذاب» أصوات الضحايا تنطلق في كل مكان مـرددة اللعنة . . وجلس جنـود تفري المنتصرون يتقارعـون الكؤوس ، ويغنون ويعربدون على الأنقاض ، ويدوسون الأشلاء بأحذيتهم الثقيلة ، ثم أشعلوا فيها النيران ، فأتت عليها عن آخرها . . الخريف الحزين يبكي بدموع السماء ، وجثث الأطفال تنهشها الذئاب ، والأشجار الخضر قد أكلتها نيران الحقد ، والزهور البديعة داستها الأقـدام . . وأصدر تفـري أوامره :

ـ « إنني أهدي هذه القرية بمزارعها الشاسعة للكنيسة ، وإنني آمر ببناء قرية نموذجية ، في وسطها كنيسة شامخة ، مكان المسجد القديم . . فلتدق الأجراس ، ولتعلُ التراتيل ، ولتقام الأفراح . . ابتهاجاً بالانتصار الذي وهبه لنا الرب يسوع . . »

وجاءه من بعيد صوت امرأة عجوز :

ـ « تفري أيها الشيطان . . أنت لا تعرف الله . . الرب يسوع يكرهك . . »

قال تفري :

ـ « هذه العجوز الخرقاء كيف أفلتت من الموت والدمار ؟؟ أُقتلوها . . »

قالت وطلقات مدفع تنصب عليها :

ـ « أيها المخمور . . إنـني مسيحية أعبد الله . . عشت وأولادي في القرية في سعادة ونعيم ، حتى أتيتم وهدمتم عشي ، وقتلتم أولادي . . فليقذف الله بكم الى الجحيم . . »

وأطبقت المسكينة فمها الى الأبد . . وحينما اقترب منها تفري نظر الى ذراعها العاري . . . كان وشم الصليب يبدو واضحاً مخضباً بالدماء ! . .

* * *

قال المطران ميتاوس لتفري عندما زاره الأخير ، بعد القضاء على التظاهرات الشعبية ، وجيوب المقاومة التي انبثقت في شتى الأماكن :

ـ « شكراً أيها العزيز تفري ، لقد أثبت كفاءة نادرة في إدارتك لدفة المعارك في كل مكان ، كما أني أكرر الشكر للهدايا والهبات التي قدمتها للكنيسة ورجالها . . »

قال تفري وابتسامة ماكرة ترتسم على فمه المقيت :
ـ « هذا قليل من كثير . . إننا لم ننتصر إلا ببركاتك أيها الأب المقدس . . »
وصمت برهة ثم استطرد قائلاً :
ـ « لسوف آمر بهدم المساجد ، ولسوف يقام مكان كل مسجد كنيسة . . ليس هذا فحسب ، بل ستبنى الكنيسة بأيدي المسلمين أنفسهم ، وستكون جميع تكاليف البناء من أموالهم ، ولسوف أعمل على تحويل مُلّاك الأراضي الزراعية من المسلمين الى عبيد للأرض ، بعد أن أهب هذه الأرض للكنيسة ولجمعيات التبشير التي ترضى عنها ، لقد كان في نيتي أن أذبح كل مسلم على ظهر هذه البلاد . لكنك تعلم أنهم ماهرون في الزراعة والصناعة ، ونشاط البلاد الاقتصادي يعتمد الى حد كبير على

جهودهم المتصلة . . نحن في حاجة ماسة الى هؤلاء الأذكياء الذين يمتازون بالدأب والصبر ، ولسوف أضع لهم برنامجاً حازماً للتنصير ، سيكون لك فيه اليد الطولى ، لقد أصدرت أمري فعلاً بإغلاق المدارس التي تدرس العربية ، والمكاتب التي تعمل على تحفيظ القرآن ، وطلبت من الشرطة القبض على أي عالم أو شيخ يحاول أن يلقي دروساً للوعظ والارشاد ، لسوف تجف منابعهم الفكرية والثقافية ، ولسوف تنتزع منهم الأرض ، ولسوف أظل معلقاً سياط التنكيل على رؤوسهم ، فيعيشون في جهلٍ وفقر وخوف ، وبهذا نقضي على الاسلام والمسلمين قضاء مبرماً . . . أهناك ما يمكن أن أقدمه قرباناً للرب يسوع ، وللكنيسة الموقرة أكثر من ذلك ؟! »

قال ميتاوس وقد أشرقت ملامحه بالبهجة والسرور :

- « رائع . . رائع . . إنك تحقق ما كان يحلم به الآباء والأجداد من قديم الزمان . . »

ثم بدا الاكتئاب فجأة على وجه ميتاوس ، وقال :

- « لكن ، يا للأسف : !! »

قال تفري مندهشاً :

- « ماذا ؟؟ »

- « إياسو . . إنه لم يزل طليقاً ، يعيش في أطراف البلاد ، وبين التلال والغابات ، يثير الحاقدين ، وينشر الفساد ، ويجمع الأتباع . لكم تمنيت أن أقبض على عنقه بيدي هذه . . لشد ما أكرهه . . أعرف أنه صهرك . . . لكنه عصى المسيح ، وأفسد علينا

حياتنا بترهاته ، وما زال يمثل تهديداً مباشراً لا يمكن تجاهله . . »

قال تفري ضاحكاً :

ـ « إنه لا يشكل في نظري خطراً يذكر ، إنه مجرد قاطع طريق أو لص آبق يتيه في الجبال ، وسط نخبة خائفة حاقدة لا وزن لها ، إن معظم الحبشة في أيدينا بمدنها الكبرى وقراها وبحيراتها وغاباتها . . ثم إن إياسو لا بد وأن يسقط في يدي . . إنني أدبر له تدبيراً محكماً ولن يفلت ، أنا أعرف من أين آتي هذا الرجل . . أنا لا أخاف المثاليين والحالمين من أمثاله ، إن طيبته هي نقطة الضعف فيه ، وصراحته قد أوردته موارد الموت ، وثقته الكبرى بالشعب قد أورثته البله والإهمال . . ثم لا تنسى أن أسرته كلها رهينة لدينا . . »

قال ميتاوس :

ـ « إنني لا أخافه . . لكنه مجرد رمز . . رمز خطر لا بد من القضاء عليه ، سيظل هذا الرمز أملاً يخفق في صدر المضطهدين من المسلمين والمسيحيين المجانين على السواء . . يجب أن نقضي على هذا الرمز يا تفري ، وإلا ظل الخطر محدقاً بنا . . »

قال تفري في ثقة :

ـ « إنني كبير التفاؤ ل . . فالحلفاء يتقدمون ، وتركيا تنهزم ، والعالم الإسلامي والعربي يئن تحت ضربات الحلفاء ، والظروف الدولية والتاريخية ليست في صالح إياسو وأمثاله . . هذا يومنا الأغر أيها المطران العظيم . . إنني أزن الأمور بميزان حساس ولا أترك

شيئاً للصدفة . لقد انتهى إياسو إلى الأبد . . ولم يبق إلا زوديتو . . »

قال ميتاوس:

- « زوديتو ؟؟ مالها ؟؟ »

- « الامبراطورة التي يتحقق في ظلها النصر ، وتجلس على كرسي لا يناسبها. التاج لمن يحميه ويدافع عنه ويرفعه الى أوج السماء . . إنني أعجب كيف يحدث ذلك . . »

التفت إليه ميتاوس معاتباً :

- « ماذا جرى لك يا تفري ؟؟ هذا أمر درسناه ووصلنا الى رأي نهائي بشأنه . . إن زوديتو لا تعدو عن كونها لعبة نضحك بها على الشعب ، كي تكتسب سياستنا صفة الشرعية . . إننا نفعل ما نشاء باسمها دون أدنى اعتراض منها »

ولم يكن تفري مقتنعاً تمام الاقتناع بهذا الرأي ، فهو يعتقد أن الشعب الذي أرغم على الرضاء بعزل إياسو في الإمكان إرغامه على قبول تفري امبراطوراً ، لا ينكر تفري أن له أعداء كثيرين ، وأنه مكروه من غالبية الشعب ، لكن توليه الملك صراحة سوف يزيد من أنصاره ، وسيعطيه الفرصة للقضاء على منافسيه من حكام المقاطعات ورجالات الأسرة المقدسة وأقربائها ، لكن ميتاوس كان يرفض وجهة نظر تفري ، ويرى في ذلك تعجلاً وعدم تبصر ، لأنه قد يؤدي الى انتكاسة خطيرة ، وقد يبذر بذور الشقاق بين كبار رجال التكتل المسيحي المتعصب، ومن ثم قد يجد إياسو ثغرة ينفذ منها ، ويسترد عرشه المغتصب ، ثم إن الأحقاد والمطامع

الشخصية بين المتنافسين قد تلجىء بعضهم الى الانضمام الى إياسو المسلم نكاية في إخوانهم المسيحيين أو نكاية في تفري الذي أمسك بزمام جميع الأمور في البلاد .

وقال تفري :

- « لا تنسَ أن زوديتو أخت « شـو أرقاش » ، وأنها خالة إياسو . . »

هز ميتاوس كتفيه في سخرية وقال :

- « لا يهم . . إن زوديتو في الحقيقة لا تملك شيئاً . . إنها عارية من السلطة الفعلية ثم إن عيوننا تلاحقها أينما ذهبت ، وحيثما حلت . . إن زوديتو تعيش في قفص ذهبي صنعناه لها . . »

قال تفري :

- « لكم أخاف زوجها ذلك المدعو « غوغسا » . . إنه شرير ذو مطامع ، وقد يحاول أن يحطم ذلك القفص الذهبي ليحرر زوجته منه ، ومن ثم يستطيع أن يجمع من حوله الأتباع وذوي النفوذ من رجال السياسة والحرب والكنيسة ، عندئذ يسقط في أيدينا ، ونساق الى حيث يسقينا الذل والهوان . . »

وأنهى ميتاوس المناقشة قائلاً :

- « إنك تبالغ كثيراً يا تفري ، إن غوغسا ليس على هذه الحالة من السوء والقحة ، وزوديتو ليست بالطفلة الهازلة التي تنساق وراء عواطفها ، أو تتبع نزوات زوجها . . لقد انتصرنا على إياسو أخطر رجل في تاريخ الحبشة الحديث . . وهذا يكفي . . »

١٥

استمع « إياسو » إلى الأخبار الواردة إليه وهو في الجنوب بدهشة بالغة ، لم يصدق أذنيه حينما أخبروه أن العاصمة سقطت في يد تفري وأعوانه ، وأرتج عليه وهو يفكر في سقوط القصر الامبراطوري وبه زوجه وأفراد أسرته ، آه . . لقد فعلها تفري ، تفري الذي كان يخفي مطامعه وراء قناع من الصمت الأسود ، أو وراء كلمات معسولة تتحدث عن الولاء والوفاء وأواصر النسب والقربى ، وفعلتها الكنيسة التي ادعت الطاعة والموافقة على سيايته ، تلك المؤسسة البائسة التي تنضح بالدهاء والتعصب ، وفعلها الجنود المغرر بهم . . وأين الشعب ؟؟ أين ذهب هذا الدرع الواقي ، وذلك الحصن الحصين الذي كنت أعده للأزمات والشدائد ؟؟ لقد حملت لواء الحرية ، ودعوت إلى التسامح والرخاء ، وحاولت جاهداً أن أنعش حالته الاقتصادية والمعاشية والفكرية . . . كنت صديقاً للجميع : الفقراء والأغنياء ، المسلمين والمسيحيين والوثنيين . حميت حرمات البيوت والمزارع والمساجد والكنائس . . . فلم لا يحطم الشعب مؤامرة

المتآمرين ؟؟ لشد ما يشعر إياسو بالحزن والألم العميق ، أكان خاطئاً فيما يفعل ؟؟ وهل كان من الضروري أن يعتصم بالدهاء والخديعة ، وأن يضرب بيد من حديد على كل حبشي تحوم حوله الشبهات حتى ولو كان تفري أو القساوسة ؟؟ أتراه يندم الآن على تمسكه بالقيم الإنسانية الرفيعة ؟؟ أكان جده منليك على حق حينما سحق أعداءه ، وأذل معارضته ؟؟ أتلك هي النهاية الحزينة التعسة للأيام المتلألئة النابضة بمعاني الخير والحب والرضى !! وتشنّجت أصابعه على بندقية يحملها، وقال وقد هزه الانفعال:

- « أيها الرفاق المؤمنون . . هل ترونني أخطأت ؟؟ أكنت على باطل ؟ ! »

قال أحد الشيوخ الأتقياء :

- « أيها الامبراطور المؤمن . . لا تجعل النكبة تسيطر عليك ، وتضعف من إيمانك بالله وبالقيم العريقة التي دعوت إليها ، إن انتصار الشر يا إياسو الطيب لا يعني أنه صواب . وإن هزيمة الخير في إحدى المعارك ، وفي عصر من العصور لن تنال من قدسيته. . . إنه هو رسالة الأنبياء والمصلحين ، إن القوة الغاشمة يا إياسو الطيب لن تحيل النهار إلى ليل ، ولن تفجر النور في الليل البهيم . . إن تفري وجنوده على باطل وإن انتصروا وساقوا العباد طوع إرادتهم الشقية ، وإنك يا إياسو على حق وإن تشردت في الآفاق ، وسكنت الكهوف ، ولاحقتك وحوش البرية . . حينما اضطهد محمد وأصحابه ، وشردوا في الأنحاء ، وحوصروا في شعاب مكة . . كانوا على حق . . . وحينما خرج من مكة مهاجراً إلى المدينة تحت ضغط قريش واضطهادها كان

على حق . . ولم ينهزم جيش محمد في « أحد » لأنه على باطل . . . كان على حق في سويعات الهزيمة والنصر . ماأكثر ما يتعرض المؤمنون للابتلاء والامتحان الشديد ، فيستشهدون ، ويعذبون ، ويسجنون ، ويطاردون ، . . . لكنهم في النهاية ينتصرون . . أعني تنتصر مبادؤهم . . أجل أيها الصديق المؤمن إياسو . . انتصر يزيد بقوته المادية الهائلة ، وانتصر الحسين بمبادئه وقوته الروحية عبر الأجيال والحقب . . لقد اختلفت صورة النصر . . ذهب يزيد إلى كرسي الحكم ، وذهب الحسين إلى أريكة الشهداء في الجنة . . أي إياسو الحبيب إن دولة الباطل ساعة . . ودولة الحق إلى قيام الساعة . . وليس أمامنا أيها الامبراطور الطيب إلا الاستمساك بالحق وإن كان مرّاً ، فإما النصر أو الشهادة في سبيل الله . . والشهادة أروع من النصر . . سيظل صوتك مدوياً عبر القرون ، وستردده الآكام في كل الآفاق . . »

قال إياسو في اكتئاب :

- « أيها الشيخ الجليل . . إن أمي في قبضة الشيطان »
- « أعرف ذلك . . وأعرف أن زوجتك أيضاً وأختك وصهرك وكل أفراد أسرتك . . فماذا أنت فاعل ؟ . . »

أدرك إياسو ما يرمي إليه الشيخ ، فقال :

- « لن أستسلم . . »
- « هذا حق . . إنهم أمانة . . كلنا في قبضة الله . . حتى الشيطان نفسه لا يستطيع أن يخرج من حكم الله . . وتفري . . مهما كانت انتصاراته مخلوق ضعيف، إنه ألعوبة في الأيدي

الخبيثة المتمردة . . وتفري له بداية ونهاية ، الخلود لله وحده يا إياسو الطيب . . »

احتقن وجه إياسو وزمجر :

- « الخائن يحبسهم لديه كرهينة . . وزوديتو الامبراطورة هي الأخرى واجهة زائفة يخفي وراءها ألاعيبه ومكائده . . إن الحبشة اليوم يحكمها عصابة من الشياطين ، يحكمها المتعصبون من رجال الدين ، والطامعون من رجال السياسة والحرب ، والمستعمرون من الحلفاء ؛ إن الحال على أسوأ ما تكون . . »

ثم دق الأرض ببندقيته وهدد :

- « إنني أشعر بالعجز القاتل . . أشعر الآن أني مجرد فرد أو مجموعة من الأفراد المجردين التعساء في مواجهة حشود هائلة مدججة بالسلاح والحقد الأعمى . . لكم أتمنى أن أكون قوة سحرية خالدة لا تموت فانقض عليهم واحداً واحداً وأذيقهم الدمار . . إن العار لا يصح أن يبقى . . والباطل يجب أن يسقط . . إن العجز يمزقني . . يمزق روحي ليكن الموت . . »

ودقت الطبول ، وانطلق إياسو على رأس رجاله من غور إلى غور، ومن غابة إلى غابة ، يخوض المستنقعات ، ويعبر الأنهار ، ويرافق قطعان الحيوانات والفيلة والوحوش ، وينقض على كوكبة من جنود تفري فيمزق شملها ، وينتقل من معركة إلى معركة ، ومن قرية إلى قرية ، لكن طوفان الشر يلاحقه ، فيحرق القرى التي تؤازره ، ويقيم فيها القواعد ، ويشيد الكنائس ويسبي النساء ، ويقتل الشباب . .

خمس سنوات أو تقل قليلاً من الكدح والعناء ، يقتحم خلالها إياسو مواطن الموت والخطر ، ويشق طريق الأهوال بين النيران والملاحقة ، إنهم يطاردونه في عنف قاتل ، وخاصة بعد أن هُزمت تركيا، وانتصر الحلفاء ، وتدفقت أسلحة الحلفاء على «تفري » أكثر وأكثر . . والإرهاب يجتاح القرى والمدن، لكن الشعب لم ينس الحبيب إياسو . . لقد غدا أسطورة شجية على ألسنة المعذبين الذين يتغنون بالخلاص والتحرر والأمل العذب . . إن أنباءه تترى في كل مكان ، وعلى كل لسان . . وميتاوس المطران يصرخ في وجه « تفري » :

ـ « قلت لك ألف مرة يجب أن تقضي على هذا « الرمز » الخطر . . لا بد من القبض على إياسو أو قتله . . إن الكنيسة على استعداد لان ترصد لك ما تشاء من الرجال والمال والإمكانات . . »

وتفري يبعث بالسرايا تلو السرايا ، ولا يكف عن حياكة المؤامرات ، ويشيع أنه سوف يقتل أفراد أسرة الامبراطور المعزول ما لم يسلم نفسه ، ويكف عن المقاومة . . إن المطاردة والمعارك الصريحة الواعية لا تحقق لتفري النصر السريع . . لا بد أن يغدر ويراوغ حتى يبلغ مناه .

أرسل إلى « إياسو » طالباً التفاوض ، لم تنطل الحيلة على إياسو على الرغم من أن تفري قد أقسم بكل عزيز وغال ، وبحق أواصر القربى والنسب أنه لن يصيب إياسو بسوء ، فقال إياسو ساخراً :

ـ « علام التفاوض ؟؟ أظنه يحاول إيهامي بأنه على استعداد لقبول عودتي إلى كرسي الحكم . . هذا مضحك . . أم تراه يساومني على وقف الحرب وتركي للحبشة مع أفراد أسرتي ، مع رصد راتب لنا ؟؟ أم تراه يريد مني أن أصدر بياناً بقبول ما حدث ، وأن أحيا كأي مواطن حبشي !! إنني أعرف تفري جيداً . . أعرف أنه ذئب مراوغ وأنه لا يقبل بغير القضاء عليّ وعلى أسرتي قضاء مبرماً . . ألا فليعلم تفري أنني لن أضع يدي الطاهرة في يد الخيانة والغدر ، اليد التي تلوثت بدماء الأبرار والأحرار والشرفاء . . »

١٦

أطلقت « مالفن » لدموعها العنان حينما علمت بسقوط العاصمة وأسر أبيها ، وزادها ألماً أن أخاها الشاب يعيش مطارداً في أطراف المملكة ، يبذل الجهود المتواصلة في محاولة يائسة لاسترداد حقه، وإنقاذ شعبه. وكانت الفرحة تموج في قلبها كلما جاءتها أنباء عن انتصاراته الصغيرة ، أو كلما سمعت بثورة شعبية في أية ناحية من أنحاء المملكة تدعو إلى إعادة أخيها إياسو ، وأخذت «مالفن» تفكر ، كيف تقابل زوجها تفري عند عودته ؟ وهل ستذهب لتقيم معه في العاصمة ؟؟ وماذا ستقول له أو يقول لها ؟؟ ليتها لاقت حتفها قبل أن ترى ما يجري من الأحداث الجسام . إنها تحيا مأساة لعينة لا مثيل لها ، زوجها يحارب أخاها ، ويسجن أباها ، فكيف تبش في وجه هذا الزوج ، وكيف تعطيه ما تعطي الزوجة رجلها ؟؟ حتى الطلاق لا تستطيعه ، أتتجرع السم ، وتقضي على هذا الشقاء والعناء النفسي الذي يمزقها ؟؟ إنها ترفض ذلك أيضاً ، لعلها تفتقر إلى مزيد من الشجاعة كي ترتكب هذه الحماقة ، أو لعلها تشعر أن هروبها على هذه الصورة تاركة

أفراد أسرتها في خضم تلك المآزق الغريبة هو عين الجبن والنذالة ، أو لعل فضولاً من نوع مؤلم يدفعها للحفاظ على حياتها كي ترى خاتمة المأساة المرعبة . . كانت « مالفن » تعيش وحيدة في جناحها كالمسجونة ، الخدم يؤدون ما تحتاج إليه في صمت وارتباك ، والحارس يقف لدى باب الجناح الخاص دون أن يسمح لها حتى بالخروج الى الحديقة ، هذه هي أوامر تفري ، إنه لا يفعل ذلك حفاظاً عليها ، أو حرصاً على حياتها . . بل يفعل ذلك من أجل نفسه . . فهو يخاف أن ينطلق لسانها بكلمات نقد جارح ، أو هجوم شخصي ، ويخاف أن ترتكب في حقه حماقة من الحماقات ، وقد تفكر في الهرب كي تلحق بأهلها . وهذا لا يليق بسمعته كوصي على العرش ، وكقائد عام للقوات المسلحة ، إنه أصبح الرجل الأول في البلاد ، ولا يصح أن تلوك الألسنة سيرته أو سيرة زوجته ، ويجب أن يتجنب أي حادث يجعل سيرته أو سيرتها مضغة في الأفواه . وهكذا بقيت « مالفن »حزينة حائرة ، لا يحلو لها نوم . ولا تستطيب طعاماً ، وقد أورثها القلق شحوباً في وجهها ، وحيرة في نظراتها ، وصداعاً مزمناً برأسها . . لقد ملت كل شيء حولها : وجوه الناس ، كلمات التحية التي تسكب في أذنيها دون معنى ، الحجرات . . النوافذ . الأسرّة . . التماثيل الجامدة . . الستائر القائمة . . الفراغ . . الانتظار الممل . . العملاق اللعين الذي يقف حارساً لدى الباب . . العيون الفضولية التي ترمقها خفية ، وفيها تعبير غريب لا تدري أهو الشماتة أم العطف . . لقد كرهت كل ذلك . . وكرهت حياتها ونفسها وأفكارها التي تجترها . . وأحلام نومها

البغيضة . . وبدت لها الذكريات القديمة وكأنها جنة وارفة الظلال تنبض بأحلى أماني الثمر وأناشيده . . كانت هي وإياسو يلعبان كعصفورين بريئين في رحبة القصر ، ويجريان في رشاقة . . وجدهما الامبراطور يقدم لهما الحلوى والابتسامات . . وكبار الرجال ينحنون لهما في احترام ، ويقبلون أياديهما الصغيرة . . لم يكن هناك مستحيل ، ولا رغبة مؤجلة . . كل شيء رهن الإشارة . . لا يلقيان أينما ذهبا إلا الابتسامات والترحيب والحب . . والذكريات زاد المسافرين في رحلة العناء والأحزان والدموع . . لقد ضاع كل شيء . . ضاع الأمان وهذا أتعس ما يصاب به الإنسان الحر . أجل لقد ضاع الأمان ، فتوشح العالم بالسواد ، وتسربت المنى بالأحزان . وغرقت دنيا الجمال في ظلمات من القهر والضياع والخوف . . وأي معنى للحياة بلا أمان ؟؟

« آه . . أين أنتِ الآن يا أمي الحبيبة « شو أرقاش » ؟؟ أين كلماتك الحنونة ولمستك الحبيبة ، وقلبك الكبير الذي يتسع لما كنت أعانيه من آلام ؟؟ وهل فعل بك تفري ما فعله بأبي ؟؟ وكيف تعيشين شتاء عمرك الأسيف وأنت بين هذه العواصف المزمجرة ، والرعود الداوية »

« وأين أنتَ يا إياسو الحبيب . . يا أنشودة الأمل على شفاه المساكين والمقهورين ؟ وأنتَ يا أبي يا منبع الحنان الصافي ، كيف تغير تاج المشيب على رأسك الوقور في غبار المعارك الآثمة التي أشعلها تفري ؟؟ وكيف تلقيت الصدمة القاتلة من إنسان

تربطك به أواصر النسب ، وتفتح له قلبك ، وزوجته ابنتك فلذة كبدك ؟؟ وكيف تحيا وحيداً في معتقلك رهين القيد والصمت والظلام ، لا تعرف ما يأتي به الغد من مفاجآت ؟ »

* * *

جاءت وصيفتها ذات صباح وقالت :

- « مولاتي . . »

لم تجب «مالفن» فاستطردت الوصيفة :

- « إن مولاي قادم اليوم »

- « تفري ؟ »

- « أجل . . »

دق قلبها ، وهبت واقفة . . ضاعت معالم التفكير وخطوطه في ذهنها المتعب المكدود ، وأخذت عيناها تذرفان بلا وعي ، شعرت برغبة حارقة في البكاء ، لكنها تماسكت ، كانت دموعها أقوى من طاقتها ، فتدفقت ، ومن ضباب الدموع رأت وصيفتها هي الأخرى تبكي ، فاندفعت « مالفن » نحوها وضمتها الى صدرها، وهي تتمتم :

- « معذرة يا أختاه . . إنني أتعذب »

- « مولاتي . . أعرف ما تنوءين تحته من آلام . . فليعاونك الله . . »

- « لقد أصبحت محطمة . . لم يعد هناك معنى لوجودي . . »

- « الجميع هنا يدركون يا مولاتي مأساتك الكبيرة . . »

وعادت «مالفن» إلى مقعدها ، وأخذت تجفف دموعها وتقول :

ـ « إنني تائهة يا أختاه . . لا أدري ماذا أفعل ؟؟ كيف أقابله ؟؟ ماذا أقول له ؟؟ كيف أعيش معه ؟؟ إن أشباح أسرتي المسكينة يتناحبون من حولي . . أبيَ في قيوده . . أمي في أحزانها ودموعها . . أخي الذي يتواثب على الجبال تحت وهج الشمس ، أو لذعات البرد القارس . . إن استقامة حياتي مع تفري مستحيلة ، ستكون زيفاً ونفاقاً وتشويهاً . . أنا لا أستطيع أن أضع قناعاً كاذباً فوق وجهي . . إذا استطعت أن أخدع نفسي ـ وهذا مستحيل ـ فلن أستطيع خداع الناس أو خداع تفري . . الجميع يعرفون الحقيقة . . إذا سرت الى جوار تفري أشار الناس إليَّ قائلين : هذه أخت إياسو وابنة ميكائيل . . وإذا انفردت بتفري فسيرى في عينيَّ ما لا أستطيع أن أعبر عنه . . إذا كان الطلاق مستحيلاً ، فلا بد من حل آخر . . . »

قالت الوصيفة :

ـ « أي حل ؟ إنها مأساة يا مولاتي . . »

ـ « لنبق أمام الناس زوجة . . ولننفصل في الحقيقة . . إن مواجهة تفري وممارسة حياتي العادية معه مستحيلة ، إنني واثقة إن بذلك لا يروق له كما أنه لا يروق لي . . »

وصمتت « مالفن » ، بينما اقتربت منها الوصيفة وجثت عند قدميها وقالت :

ـ « مولاتي . . تستطيعين أن تلعبي دوراً هاماً في تلك المشكلة الكبرى ، إنني أعتقد ذلك ، لماذا لا تكونين حمامة

سلام بين أسرتك وبين تفري ؟إن جلسة واحدة في حجرة الزوجية مع تفري تستطيعين خلالها أن تحققي الكثير من الأهداف التي عجزت السياسة والحرب عن تحقيقها . . لست أدري لماذا لا تجربين هذه المحاولة ، لا من أجلك أنت ، بل من أجل أخيك وأبيك . . فإذا نجحت فقد حققت أملاً منشوداً ، وإذا لم تنجحي فلن تخسري شيئاً ، إنني أعتقد أن هذا هو واجبك . . معذرة يا مولاتي . . أنت بنت الصدق والصراحة . . لكنني خبرت حياة القصور ، وجربت الحياة أكثر ، إنني أكبرك بعشر سنوات . . وأعرف تفري منذ زمن بعيد . . »

استمعت « مالفن » إلى قول وصيفتها في اهتمام بالغ ، وأخذت تفكر في ذلك العرض الذكي ، الذي ليس له دافع سوى المصلحة . لكن على أي أساس يكون حديثها مع تفري ؟؟ وماذا تطلب منه على وجه التحديد ؟؟ أمن المعقول أن تطلب منه أن يعود أبوها الى « والو » حاكماً ؟؟ أيمكن أن تقول له : يجب أن يعود إياسو الى العرش ، وأن يبقى تفري نائباً للامبراطور وقائداً عاماً للجيش ؟؟ هل هذا عرض معقول بعد أن احتدمت الحروب ، وسالت الدماء ، وتأرثت الأحقاد ، وقامت الكنيسة ورجال الأعلام بحملات ضخمة تلوث فيها تاريخ إياسو ومجده وأفكاره . . إن هذه مجرد أوهام فماذا تعرض على تفري إذن ؟؟ أن يؤمِّن أخاها ، ويطلق سراح أبيها ، وأن يجري لهما راتباً ، دون أن يكون لهما دخل في السياسة أو شئون الحكم وهل يقبل إياسو أو أبوها هذا العرض ؟؟ ولهذا قالت مالفن :

ـ « إن الأمر يا أختاه جد معقد ، فما هو العرض الذي يقبله

تفري ، وتقبله أسرتي في نفس الوقت ؟؟ »

قالت الوصيفة :

ـ « أنا لا أعرف على وجه اليقين ، لكن هذا ما تستطيعين تبينه عندما تناقشين الأمور مع تفري ، لسوف يفتح الحديث الخاص أمامك الكثير من المداخل، وسيلقي الأضواء على كل ما يلازم الموقف من مشاكل وتعقيدات . . »

هزت « مالفن » رأسها في اكتئاب وقالت :

ـ « لن أدخر وسعاً في بذل أي شيء من أجل أسرتي . . إنني على استعداد لأن أضحي بحياتي من أجل الحفاظ على كرامتها وحمايتها ، لسوف أنحي مشاعري الخاصة ، ولسوف ألتزم صفة جديدة أنكر فيها ذاتي وحكمي الشخصي . . لسوف أعمل المستحيل من أجلك يا أبي . . من أجلك يا إياسو الطيب الحبيب . . »

قالت الوصيفة :

ـ « هذا عين العقل . . يجب ألا تفكري على أسس مثالية حالمة ، بل إن تفكيرك يجب أن ينطلق من خضم الواقع المرير الأليم ، إنه لشيء مؤسف حقاً ، لكن لا مناص من الاعتراف بذلك ، هل تتصورين أن يعود تفري مرة أخرى حاكماً لمقاطعة من المقاطعات ؟ مستحيل . . فكري في ذلك جيداً . . وأظن أن عرضي للأمور واضح لديك يا مولاتي . . »

قالت « مالفن » :

ـ « أعرف ذلك . . وإني لك لجد شاكرة . . »

ابتسمت الوصيفة وقالت دون أن تنجلي مسحة الحزن عن وجهها :

ـ « إن زوجك الذي غاب عنك هذه المدة الطويلة يجب أن يراك في أحسن حال ، يجب أن تغيري هذه الثياب ، وأن تتعطري بأطيب العطور . . إن الرائحة الزكية الفعالة تريح قلب الرجل ، وتهدىء من روعه ، وترقق من حاشيته ، فيخفق قلبه في جو شاعري جميل . . يتحول الى وداعة وطاعة واستسلام بين يدي امرأته . . ابتسمي يا مولاتي . . إن أباك ما يزال بخير ، وأخوك لم يزل يحمل السلاح ، والملايين يلهجون باسمه ، وسيظل محبوباً من الناس على الرغم من عدم بقائه امبراطوراً . . لقد ملك عرش القلوب . . ولا تنس أن تفري ـ مهما كان الأمر ـ زوجك . . وأنه لن يكون قاسياً بأي حال من الأحوال . . إن ما حدث من الحروب ليس أمراً شخصياً ، إنه صراع أفكار وسياسات مختلفة ، تحيط به عديد من الظروف والملابسات . . إن الحكم على ما حدث يحتاج لتبصر وفهم أعمق . . إنه شيء آخر غير إياسو وتفري . . وأنت تدركين ما أرمي أليه . . »

قالت (مالفن) :

ـ « على الرغم من أنني لا أقرك على كل التفسيرات التي تبدينها ، إلا أنني أعتز برأيك . وأعتقد أن هناك الكثير مما تقولين يلتزم الاخلاص والصدق وذكاء التعبير . . إنني أعرف ما ترمين اليه . . »

ـ « أشكرك يا مولاتي . . »

ـ « بل أنا أشكر لك آراءك الطيبة . . وسأظل أحفظ لك هذا الجميل ، لقد أمكنني بالفعل أن أتبين طريقي وسط الضباب واليأس والظلمات التي تحيط بي من كل جانب . . »

قالت الوصيفة وهي تنصرف :

ـ « فليرعاك الله ، وليكتب لك التوفيق والسعادة . . »

* * *

١٧

رأته قادماً بسمته المعهود ، لكأنه الموت يحيط بها من كل جانب ، يمضي منتفخ الأوداج متعالياً متغطرساً ، كأنه إلـه صغير . . النفير يدوي ، والطريق مفروشة بالأزاهير ، والطبول تدق مع الأجراس المجنونة ، لمحقق النصر ، وحامي حمى الكنيسة ، وغمغمت بينها وبين نفسها « آه يا مـالفن كيف تبتسمين في وجهه ؟؟ إن ابتسامتك ستولد ميتة، وقد تتحول الى صرخة اشمئزاز وحقد . وهل ستهنئينه بالنصر على أخيك وأبيك ، أم تنكرين عليه ذلك النصر اللعين الذي جر عليك الوبال، وجلب عليه العار ؟؟أي تفري يا معين الخيانة والغدر إنني ألعنك صباح مساء ، لِمَ لَمْ تمت كما مات إخوتك العشرة من قبل ؟؟ لكنها إرادة الله . . . »

قالت وهي تبتسم ابتسامة شاحبة :

- « إنني أحمد الله على سلامتك »

رمقها في شك ، ثم استدرك قائلاً :

- « هل أنت بخير ؟؟ »

ـ « أشكرك كنت قلقة من أجلك »

كشف القناع عن وجهه دون حياء وقال وهو يحاول الانشغال بشيء تافه :

ـ « أعرف أن الأحداث الأخيرة قد تركت في نفسك أثراً لا يمحى .. هذا أمر طبيعي »

ـ « إنك زوجي يا تفري ، وإياسو أخي .. إن الصراع بينكما صراع أخوة مهما كان الأمر ، ولن يبلغ مرحلة التصفية الخشنة ... »

قال وهو يواجهها في صراحة :

ـ « بل صراع مبادىء يا« مالفن » ، إنني رجل مسيحي أغار على ديني وعقيدتي ، وأؤمن أن الحبشة بلد المسيحية ، تماماً كما تقولين عن مكة بلد الاسلام . إنني أرفض وأعارض بشدة أن تتخذ الحبشة صفة غير الصفة المسيحية ، كما أرفض دون تردد أن يكون امبراطور الحبشة مسلماً ، تلك هي القضية ، إنني أعبر فيما فعلته عما يجيش في صدور الحبشيين المسيحيين وما يريده رجال الكنيسة ، وهم السلطة الروحية .. أعني السلطة العليا في البلاد ، إنني مجرد جندي مؤمن أدافع عن هذه المبادىء ، وليس لي أي هدف شخصي ، وما أقدمت عليه بالنسبة لإياسو كان من الضروري أن نقوم بمثله في مواجهة أي منحرف ، وبأسلوب أفظع .. وأنا في الحقيقة لم أكن أنوي أن أفعل سوى تسليم السلطة بهدوء لمن يؤمن بهذه المبادىء . لكن أباك ساق الجنود ، وأراد أن يشعل حرباً دينية .. معذرة إنني لا أقر ميكائيل على ما

فعله ، كان مسلماً بينه وبين نفسه ، ومسيحياً في الظاهر ، إن هذا الانفصام والالتواء لم تكن لتطيقهما الحبشة . . »

قالت (مالفن) وهي تحاول أن تخفف من حدة انفعاله :

- « إن إياسو أخوك . . »

- « هذا هو شعوري، ولقد حاولت التفاوض معه ، لكنه أبى ، وأصر على مواصلة الحرب على الرغم من أنه يدرك الأمور جيداً ، ويعلم علم اليقين أنه يخوض معركة يائسة . . لو كان يعتصم بمنطق العقل ، ومتطلبات الواقع ، لألقى السلاح فوراً . . إنه يتحرك بدافع شخصي ، يبدو أن الحقد يأكل قلبه ، هل تضايق لأن تفري انتصر وانتصرت مبادئه ؟ أنا لا أتباهى بما حققته ، ولكني أقرر واقعاً . »

فاقتربت (مالفن) منه وقالت :

- « أي تفري . . لماذا لا تحاول من جديد ؟؟ إن إياسو طيب القلب »

- « وما الحل الذي تقترحينه ؟؟ »

- « ماذا ترى أنت ؟؟ »

- « إن الأحداث قد أجابت على هذا السؤال ، لقد حلت المشكلة بالنسبة لي وللحبشة ، لكن إياسو يصر على تجميد الموقف ماذا يريد بالضبط ؟؟ هل يتصور أنه في الامكان أن يعود امبراطوراً ؟؟ هذا هراء . . إن ما أراه هو أن يلقي السلاح ، وأن يعلن تخليه عن إسلامه ، ثم يقدم للكنيسة طائعاً تائباً . . ولتفعل الكنيسة بعد ذلك ما تشاء . . »

حاولت (مـالفن) أن تفهمه أن هذا الموقف المتشدد لا يمكن أن يحل الوضع المعقد ، إن إياسو يفضل أن يضحي بحياته على أن يقدم نفسه ذليلاً مهزوماً للكنيسة ، ثم إن مسألة العقيدة الدينية لا يصح أن تكون محل نقاش ، إنها مسألة شخصية ، وإياسو حين أسلم أسلم بعد تفكير واقتناع ، ولا يمكن أن يتراجع لمجرد ما حاق به من هزيمة ، كانت (« مـالفن ») ترى من حيث المبدأ أن يحاول تفري إعادة أبيها الى منصبه في مقاطعة « والو » ، فإذا ما حدث ذلك ، فستهدأ الخواطر ، ويقدم تفري بذلك الدليل على حسن نواياه ورغبته في تصفية الأمر ، أما بالنسبة لإياسو فإن الأمر أشد تعقيداً ، ألا يمكن أن يكون هناك استفتاء للشعب يختار فيه امبراطوره بمحض إرادته ؟؟

وأمام المقترحات التي قدمتها (مالفـن) قال تفري :

- « إنني لا يمكنني أن أفعل ذلك بالنسبة لأبيك . . من أنا ؟؟ مجرد قائد لمعركة يتلقى أوامره من جهات عليا . إن هناك مؤسسات دينية وسياسية هي التي ترسم خطوط السياسة الداخلية والخارجية . . ثم أن أباك ومواقفه المعادية ، وتاريخه المرتبك لا يساعدني على أن أقدم مثل هذا الاقتراح ، بل على العكس لسوف يلومني الجميع . . سيقولون إن تفري يحاول أن يهادن أقاربه وأصهاره ، لقد عنفوني لأني لم . . . ماذا أقول ؟؟ كانوا يريدون تنفيذ حكم الاعدام في صهري العزيز ميكائيل بعد القـبض عليه . . لكن لم أستطع أن أقبل هذا . . إنه مستحيل ، لقد رفضت ذلك بكل قوة . . وقدمت رقبتي فداءً له ، ومن ثم اكتفوا باعتقاله . . »

قالت(مـالفن) محاولة أن تثير حميته ، وتغذي غروره :

- « لكنك بالنسبة لهم كل شيء يا تفري . أنت الذي حققت النصر بسرعة مذهلة . وأنت المخلص الأكبر للكنيسة والدولة ، ومنصبك الحالي يجعلك تمثل أكبر ثقل في الدولة . . »

قال تفري :

- « أي عزيزتي(مـالفن). لكم كان يعز عليّ أن أخوض حرباً ضد شقيق زوجتي وأبيها . . إنها مهمة صعبة مقيتة الى نفسي لكنني لو تقاعست لقام بها غيري ، ولذبحنا جميعاً أنا وأنت وأسرتك كلها ، كان من الحكمة واللباقة أن أؤ دي ما طلب مني ، ومن ثم استطعت أن أحمي روحي وأرواحكم . لسوف يذكر التاريخ أنني لم أكن خائناً أو متآمراً . . لقد أديت واجبي بما يرضي الله والضمير والأمة . . »

نظرت اليه في دهشة ، هذا الشيطان يحاول أن يبدو في صورة الملاك المخلّص ، أتراه نسي الدماء التي أراقها ؟؟ وهل نسي الثقة التي أوليناه إياها ؟؟ أينكر الوسائل الخبيثة التي توسل بها للقضاء على خصومه في الرأي والعقيدة ؟؟ إن رائحة القرى التي أحرقت ، والجثث التي تراصت في العراء ، وآلاف المكائد البشعة . . . إن رائحة هذا كله تفوح من أردائه . . أين مثل هذا الشيطان من إياسو المؤمن الطيب الذي لم يفكر في الانتقام ممن حاول قتله ؟؟ لا . . لا . . لا يصح أن تعقد مقارنة بين الأرض والسماء ، والليل والنهار ، والبساتين المورقة المزهرة والصحراء الجرداء . . ؛ إن مثل هذه المتناقضات لا تحتاج الى شرح أو

تبيان .. سكان الحبشة جميعاً بما فيهم المسيحيون والوثنيون والمسلمون يعرفون من إياسو ومن تفري ؟؟ المتبجح الملعون تفري ... يحاول جاهداً أن يكسو فظائعه ووحشيته بلباس المبادىء والشرعية ، ويلتمس لها المعاذير ..

وعاد تفري يقول :

ـ « إن اختيار خالتك « زوديتو » امبراطورة قد حل الإشكال ، وكان من الواجب على إياسو وعلى أبيك أن يعلنا تأييدهما لهذه الخطوة الموفقة ، حفاظاً على وحدة الأمة ، وحفاظاً على كيان أسرتهما .. إن تصرفاتهما التي جانبها التوفيق ستؤدي الى المزيد من النكبات والدماء والقلاقل .. »

قالت « مـالفن » :

ـ « وإذا استطعت إقناع إياسو بوقف الغارات ؟؟ »

ـ « سيكون هذا عملاً رائعاً منك »

ـ « والنتيجة العملية لهذا ؟؟ »

ـ « أن يحيا في قصر خاص ، ونقيم راتباً يكفيه ، ونحيطه بما يريد من خدم وحرس : على شرط أن يعلن تأييده للوضع القائم ، وألا يطمع في أي منصب ، وأن يعلن أبوك تأييده كذلك ، مع عدم التفكير في العودة إلى « والمو » مرة ثانية .. يجب أن يبتعدا عن العمل السياسي كلية .. »

كانت « مالفن » تشك كثيراً في قبول أخيها لهذا العرض ، فهي تعلم الكثير عن أخلاقه وتفكيره ومبادئه ، إنه يفضل أن يراق دمه على سفوح التلال ، وتنهش جسده الوحوش على أن يقر

بوضع شاءه ظالم لا يرتاح إليه ضميره ، ولا يؤمن به عقله ، لكن لماذا لا تحاول ؟ إنها لن تخسر شيئاً »

- « سأحاول أن أفعل ذلك يا تفري ؟ »

وأعطت (« مالفن ») ظهرها لتفري ، وشبكت يديها فوق صدرها وقالت :

- « إنني عاتبة عليك يا تفري »

- « لماذا ؟؟ »

- « لقد وضعتني في موقف حرج ، إذ كيف تقيم على بابي سجاناً يمنعني من الخروج ؟؟ أنسيت أنني زوجتك ، وأن هذا قد يثير التساؤل والعجب في نفوس الناس ؟؟ ألا تثق فيّ يا تفري ؟؟ » .

وتذكر تفري الرسالة التي كتبتها إلى أخيها ، وكيف كان بدنه يقشعر لقسوة الكلمات التي كتبتها ، كان واضحاً أنها تقف إلى جوار أخيها ، وفي الوقت نفسه تعارض زوجها بشدة ، وتأخذ عليه مسلكه الشائن الحقير ، لكنه لا يستطيع الآن أن يوضح لها ذلك كله ، ومن ثم قال :

- « عزيزتي (« مالفن »)، كنت مضطراً إلى ذلك ، لقد كان إجراءً مؤقتاً ، والأحداث أكبر مني ومنك ، ولقد أسلفت لك أن هناك سلطة عليا تحكم تصرفاتي ، ومن الحكمة ألا عارض هذه السلطة ، إنني أعتذر إليك عما حدث ، لكني كنت مضطراً إلى ذلك . . وهأنذا قد عدت إليكِ بعد أن أوشكت الأمور على الاستتباب ، فلتنعمي بحريتك كما تشائين ، ولسوف نرحل إلى

العاصمة « أديس أبابا » ، إن زوجك الآن وصي على العرش ، وقائد أعلى للقوات المسلحة ، وسترين في حياتنا الجديدة ما يملأ فؤادك بالرضى والسعادة ، فلا تقلقي على أبيك أو أخيك ، فلسوف أحفظهما من كل سوء » .

قالت: وقد نزلت كلماته برداً وسلاماً على قلبها الذي يتعذب:

- «أتعدني بذلك يا تفري؟؟».

- « أقسم بشرفي على ذلك . . »

استدارت إليه باسمة وقالت :

- « كم أنا سعيدة !! »

ساورها قليل من الشك في كلماته . . لكنها رأت من المعقول أن يتصرف تفري مثل هذا التصرف ، إنه ليس وحشاً في غابة ، إنه إنسان على أية حال ، وصراع السلطة لا يجعله يتشفى في أصهاره برغم كل ما حدث . كانت راغبة في تصديقه ، وخاصة أنها لا تستطيع أن تتصور حدوث شيء خلاف ذلك . .

* * *

منذ أن انتقلت« مالفن » مع زوجها إلى العاصمة ، وهي لا تكف عن تهذيب حاشية تفري ، وترقيق عاطفته بالنسبة لأهلها ، حاولت في استماتة أن تجعله يفرج عن أبيها السجين ، لكنه أكد لها أن ذلك سيحدث عندما يلقي « إياسو » السلاح ، وأكد لها أن أباها يعيش في بحبوحة من العيش ، وأنه يعامل أحسن معاملة ، وأخذت رسائل « مالفن » تترى على إياسو ، شارحة له وجهة نظرها ووجهة نظر تفري ، وكانت إجابات إياسو لا تخرج عن معنى واحد وهو أنه على حق ، وأنه لن يفرط قيد أنملة في هذا

الحق ، مهما كلفه من تضحيات ، ولسوف يواصل نضاله حتى آخر رمق ، ولو بقي في الميدان وحده . .

وكان تفري لا يفتأ يعتب عليها ويقول لها . ها أنت ترين تردده وإصراره على المضي في خطه العدائي . . إنه يكرهني يا (مالفن) هو لا يهمه أمر البلاد ، فلنغرق في طوفان من الدماء ، ولا يهمه أمر المسلمين الذين يحبهم ويحبونه ، إنني أعترف أن حملاتنا التأديبية لا تكف عن التنكيل بهؤلاء المسلمين ، بعد أن ملأ أخوك رؤوسهم بالترهات والأوهام والتمرد ، إننا ننكل بهم بسببه ، فهم يساعدونه ، وهم يرددون أفكاره ، ويشيعون الكثير عن انتصاراته الوهمية ، ويجعلون منه أسطورة نضال رائع يتغنون بها ، إن الدولة لا يمكن أن تسكت على هذا الانحراف . . قلت لك ألف مرة إن الحبشة مسيحية ، ولن تكون غير ذلك حتى ولو بلغ تعداد المسلمين تسعة وتسعين في المائة . . لكنني لم أزل انتظر لعل إياسو يفيق من غيه ، ويثوب إلى رشده . . »

قالت (مالفن) :

- « إنني أريد أن أفعل شيئاً أخيراً يا تفري »

قال تفري : « ماذا »؟قالت : « أن التقي بإياسو . . »

- « هذه فكرة صائبة . . لكن كيف ؟؟ »

- « سأراسله حول هذا الموضوع ، إنه يسره أن يلقاني . . »

- « لقد أصبح إياسو يشك في أقرب الناس إليه . . »

- « لكني أخته . . إنني حريصة على أن يسود بينكما الوئام ، وأن تحيا أسرتنا حياة طيبة تليق بكرامتها وماضيها ، وأريد في نفس

الوقت أن أنفي الحرج الذي يلاحقك ، فإن صراعك مع صهرك مسألة تلفت النظر . . »

- « وما ذنبي أنا ؟؟ »

حدجته بنظرة خاطفة ذات معنى ، فهي تعلم أنه سبب البلاء كله ، وأن أطماعه الخبيثة ، هي التي ملأت الأرض بالدماء والخطايا ، لكنها لم تعد بقادرة على مواجهته بذلك ، لقد أصبحت هي وأخوها في الجانب الأضعف ، ومن ثم لا بد أن تغض الطرف عما يهرف به من أكاذيب . وما يومىء به من ادعاءات . . ليقل ما شاء فإن الحقيقة واضحة يعرفها الجميع ، وهو نفسه ـ برغم مكابرته ـ يعرفها جيداً . .

وظلت « مالفن » فترة طويلة تبذل الجهود تلو الجهود ، وتبعث بالرسائل تلو الرسائل . ولم تستطع مع ذلك أن تفعل شيئاً يتقدم بها نحو حل المشكلة ، ولم يكن تفري نائماً ، كان يحاول ـ كالعهد به ـ أن يستغل الفرص التي تسنح ويتابع رسل « مالفن » ويجمع المعلومات عن إياسو وعن خط تنقلاته وصلاته ببعض القبائل والمدن ، كان يرسل إليه عيونه وجواسيسه كي ينضموا إليه ، ويظهروا له ولاءهم وانضمامهم إليه ، واستطاع تفري أخيراً أن يحاصر إياسو في إحدى المناطق النائية ، على إثر خديعة ماكرة خبيثة ، وبعد معركة قصيرة ، وجد إياسو نفسه محاصراً برجال « تفري » . وغدارته خاوية من الطلقات ، وعشرات الأيدي تقبض عليه ، وتضع في يده الأغلال ، وظهر تفري من بعيد ، وأخذ يقترب من إياسو وهو يبتسم ابتسامته الماكرة الصفراء ، وقال تفري ونبرات صوته تنضج بالشماتة :

ـ « الآن انتهت المعركة . . »

ـ « لم تنته بعد أيها الخبيث . . »

ـ « إنك دائماً تسيء اليّ . . »

ـ « لتعلم يا تفري أن المعركة الكبرى لا ترتبط بك وبي وحدنا . . إنها صراع أزلي بين الحقِ والباطل . . معركة مبادىء يا تفري ، إنك لم تحقق نصراً نهائياً بعد ، لقد استطعت أن تسرق النصر الظاهري ، وتستولي على الأرض ، واستطعت يا تفري أن تكتم أصوات الأحرار ، وأن تنشر الإرهاب في كل مكان ، واستطعت أن تأخذني أسيراً ، لكن الشعب في صمته أعلى هديراً مني ومنك ، والشعب برغم صمته لم يزل صامداً مترقباً ينتظر اللحظة الحاسمة ، لقد أعلن الشعب رأيه الحقيقي فيك وفيّ ، وأنت تعرف هذا الرأي ، ولكنك تتجاهله ، إنك يا تفري تتمسح في الدين ، وتجعل منه ستاراً لأطماعك ، أنت تعلم ذلك . . لكن الدين براء منك ومن أفعالك ، الدين يا تفري ـ أي دين ـ يجعل الأمر شورى ، ويعترف بإرادة البشر ويقدس حرياتهم وآراءهم . . والدين يا تفري ليس فيه تأكيد للخداع والمكر والكذب والإرهاب، ولا يبيح إراقة الدماء من أجل أغراض دنيوية تافهة . . والدين يا تفري لا يقرك على تحالفك مع الاستعمار عدو الله وعدو الشعوب . . والدين يا تفري لا يقرك على إذلال البشر ، وإدخالهم في عقيدتك على الرغم منهم . . »

قال تفري مقهقهاً :

ـ « دائماً تتحدث عن الله في أوقات الهزيمة والضياع . . »

ـ « كنت أتحدث دائماً يا تفري لأني أؤمن به عن يقين . . »

ـ إنك تجيد الخطب والوعظيات لا غير . . »

ـ « وأجيد يا تفري منازلة الظالمين . . »

قال تفري في سخرية :

ـ « هذا واضح جداً . إنك لم تزل تتحدث عن النصر ، على الرغم من الأغلال والسلاسل التي تشل حركتك . . كان رأيي فيك دائماً أنك مثالي حالم ، لا تصلح للحكم . . الدراويش لا يصلحون للحكم يا إياسو أيها الأخ المبجل . . »

كظم إياسو غيظه . . وسدد إلى تفري نظرات نارية ، وقال :

ـ « ليس لديك رصيد من القوة الروحية تحمي به أمتك ، إن بلادنا لن تثبت أمام أية قوة عادية : **فأنت تربي جيلاً من العبيد ، والعبيد لا يحققون نصراً** . . »

ـ « لم تزل تحلم يا إياسو ، هؤلاء العبيد هم الذين حرروا الحبشة من انحرافاتك وتسلطك . . »

ـ « قل ما شئت ، فتثبت لك الأيام ما أقول . . لقد شوهت أنت ورفاقك مبادىء الدين ، ومفاهيم النصر ،

وأفسدت معنى الحرية والإخاء والوطنية . . ، قد تكون حققت نصراً سريعاً ، وقد أكون أنا لاقيت الهزيمة ، لكن الـذي يؤلمني هو محاولة سحق المعاني النبيلة في حياة الإنسان الحر الشريف . . والمعركة لم تنته بعد يا تفري . . »

هز تفري رأسه ، وقال :

ـ « أنا لا أنظر الى بعيد ، ولا أحلم بالمثاليات ، وستذهب أنت الآن الى السجن ، عندئذ ينتهي كل شيء . . حسناً لتذكر جيداً أنني لن أقتلك . . فأنا لا أحب سفك الدماء ، ألم تزل مصرّاً على اتهامي بالقسوة ؟؟ . . »

ثم التفت إلى الحراس وصاح في صرامة :

ـ « خذوه إلى السجن . . يجب أن تحيطوه بالحراسة المشددة . . »

ولم ينسَ تفري ، أن يبرق فوراً إلى الكنيسة وعلى رأسها الأب ميتاوس ، ويخبرهم بنجاح خطته ، وانتهاء مقاومة إياسو الى الأبد ، والقضاء على الرمز الحي الذي كان يؤرق الطامعين . . القضاء على إياسو .

***

ودقت الطبول والأجراس مستقبلة البطل الظافر تفري ، وأقيمت الزينات والأعلام ، وترنم الرهبان والقساوسة بصلوات الشكر لله ، بينما جلست « مالفن » في قصرها حزينة باكية :

ـ « ألا ترحمني يا تفري ؟؟ »

ـ « لقد استطعت أن أنقذه من حبل المشنقة »

ـ « السجن أفظع من الموت يا تفري . . »

قال تفري ساخراً :

ـ « سيجد في السجن فرصة طيبة للتفكير والتأمل وعبادة الله . . السجن خلوة الصالحين والأطهار يـا (مالفن »).

ـ « لا يصح أن تسجن امبراطوراً لم يسىء إليك شخصياً ، فضلاً عن أنه صهرك . . » .

قهقه تفري ساخراً ، ثم كشر عن أنيابه وصاح :

ـ « كفي عن هذا الهراء . . إنني أمقته . . وأمقتك أنت أيضاً . . »

شحب وجهها . . وهتفت في رعب :

ـ «ماذا؟؟أنت لست في وعيك يا تفري » .

ـ « إنني أعلم جيدا أنك تكرهينني ، وتتمنين زوالي ، وكذلك كان أبوك وأخوك . . إنني لن أزول . . أتفهمين ؟؟ لن أزول . . أنا باق هنا لأحكم وانتصر ، وأقضي على جميع أعداء المسيحية . . إنني أتكلم بصراحة ، وأفصح عن نـواياي بطريقة جديدة عليك . . لقد تعودت مني أن أعمل في هدوء ، وأن أعبر عن نواياي بطريقة مخالفـة . . والآن لقد انتهت المعركة ، ولم يعد هناك من سبب لإخفاء نواياي . . لن يخرج أبوك ولا أخوك من السجن . . وأنت !! أنت أيتها الملعونة . . لا أريد أن أرى وجهك بعد الآن . . فلتعيشي في هذا القصر كأحقر خادمة ، حتى يقضي الله أمراً . . إنني أكره أن أسمع

اسم إيـاسو أو ميكائيل . . لا ترددي هذه الأسماء أمامي مرة ثانية وإلا . . وإلا قتلتهما . . إن كلمة واحدة كفيلة بوضع حد لكل هذه المهازل . . »

شهقت (مـالفن) باكيـة ، وجثت لـدى قـدميـه ، وقـالت ضارعة :

- « إفعل بي ما شئت يا تفري . . لكن ارحمهما . . إنني أعرف جيداً مدى نفوذك . . أنت قادر على فعل أي شيء في هذه البلاد . . »

ركلها بقدمه ومضى مغبر السحنة ، لم يرق لـدموعهـا وآهاتها وتوسلاتها . .

ورمقته وهو يتوارى عن الأنظار :

- أيها المقيت الملعون . . لم يكن يناسبك سوى أن تحكم غابة أنت لا تحب الله ولا الشعب ولا الكنيسة . . بل تحب نفسك . . لقد حاولت جاهدة أن أكبح جماح نفسي ، وأن أضغط على عواطفي ، وابتسم لك ، وأضرع اليك . لعلي أستطيع أن أخفف من أحقادك وقسوتك ، ولعلي أنجح في إنقاذ أسرتي من براثن غدرك . . لكنك كالصخرة التي لا تنبض بقطرة واحدة . . لتذهب ملعوناً في الأرض وفي السماء . . »

* * *

ومات (ميكائيل) مسموماً في سجنه .

وماتت (مالفن) مسمومة في قصرها . .

وصدرت بيانات مقتضبة عن كل منهما . .

وتهامس الناس ، تحت أسقف المنازل ، وخلف ستائر الليل الحالكة السواد ، ولم يستطع الهمس أن يتصاعد أو يعلو. إن «تفري»الشيطان لا يـرحم. . .ولم يبق إلا إياسـو خلف الأسوار،يحيا بين آمـال الماضي، وأحـلام المستقبل الغامض ، وآلام الحاضر الحزينة . . إنه يحيا بين كلمات الله ، مستغرقاً في عبادته . . وحيداً صابراً . . . لكن اسمه على كل لسان . . لم يزل الأغنية الشجية التي ترف على شفاه المعذبين والمضطهدين . . .

١٨

وظل إياسو في سجنه سنوات طويلة ، لقد استشرى نفوذ تفري في حماية أصدقائه الانجليز والفرنسيين ، وفي حماية الكنيسة ورجال الدين المتعصبين، كانت «زوديتو» خالة إياسو، وزوجة الرأس «غوغسا» - أحد حكام المقاطعات - كانت زوديتو هي الامبراطورة ولا يعرف الناس عنها في الحبشة شيئاً يذكر ، يرون صورتها ، ويقرأون بعض المراسيم بتوقيعها ، لكنهم على يقين أنها لا شيء على الاطلاق ، إن ولي العهد وقائد الحبشة تفري هو السلطة الفعلية التي تعبر عن إرادة المستعمرين ورجال الدين المتعصبين ، واستغل تفري فرصة الثقة المتاحة له ، ورضاء الأجانب والكنيسة عنه ، في القضاء على مناوئيه ، والتمكين لسلطانه بجمع الأتباع ، وإعطاء المناصب الحساسة لمن يثق فيهم ، وإغداق المنح والهبات على من يشاء من أنصاره ومؤيديه . . .

لقد خفت صوت إياسو خلف أسوار السجن العتيد عام ١٩٢١ حتى عام ١٩٣٠ . واستطاع تفري أن يقيم حول منفى

إياسو ستاراً كثيفاً من الصمت والغموض والرعب ، وظن أن الامبراطور السجين قد انتهى ، وأنه لا داعي لقتله ، بل ان ذلك السجن الرهيب ؛ أبشع من الموت نفسه . . لكن تفري وقوته وسلطانه وإرهابه لم يكن ذلك كله قادراً على الوقوف موقف التحدي في مواجهة القدر الغلاب . . كانت «(زوديتو)» هي الامبراطورة اسماً لا عملاً . .

وكانت تدرك ذلك ، وتشعر بمرارة قاتلة ، لكن ماذا تفعل ؟؟ لشد ما تكره هذا الملعون تفري ، إنه هو السبب في جلوسها على كرسي العرش ، لكنه أخذ منها بالشمال ما أعطاه لها باليمين ، إنها تأتمر بأمره وكأنها وصيفة من وصيفات القصر الامبراطوري وليست صاحبة السلطة العليا الحقيقية في البلاد ، وكان زوج الامبراطورة «(الرأس غوغسا)» يكاد ينفجر غيظاً ، إنه يرى زوجته مجرد ألعوبة في يد تفري ، ليس في مقدورها أن تحسم أمراً ، أو تبت في مشكلة من المشاكل ، وظل غوغسا يكتم غيظه ، ويداري أساه لسنين طويلة ، انتظاراً للحظة الحاسمة التي يستطيع فيها أن يرد لزوجته الامبراطورة سلطتها الشرعية ، وذات مساء قال غوغسا لزوجته(زوديتو):

- « إلى متى نظل نمثل هذه المهزلة التي يخرجها تفري ؟؟ لقد أصبحنا أضحوكة للشعب ، نحن لا نملك من السلطة إلا اسمها ، بل إن سلطاتك الرمزية كامبراطورة مهددة هي الأخرى بالضياع ، إنني لا آمن مكر تفري » .

قالت زوديتو :

- « إنني أتعذب مثلك ولا أعرف أين السبيل ، إنني أعيش كما ترى فيما يشبه السجن ، نحن لا نختلف يا غوغسا عن إياسو المسكين المظلوم ، إنني أشعر الآن بأني خنت إياسو حينما وافقت على تولي منصب الامبراطورة ، فلو أني رفضت لوضعت الملعون تفري في مأزق ، ولربما عاد إياسو عند ذاك إلى منصبه الشرعي في البلاد . . »

قال غوغسا :

- « يجب أن أن نبحث عن حل » .

- « إنني متفقة معك ، لكن كيف ؟؟ »

- « ألم تتدارسي الأمر مع رجال الكنيسة » . .

- « إنني حائرة يا غوغسا ، تارة أراهم يؤيدونني ويسخطون على تفري ، ويبدون التململ من تسلطه وتحكمه ، وتارة أخرى أشعر أنهم قد عقدوا معه حلفاً غير مقدس . . . لا فائدة ترجى من وراءالكنيسة عندنا ، إنها مؤسسة ضالة مضلة ، يعميها التعصب ، وتحجب الملذات عنها الرؤ ية . . نحن نعيش مأساة بشعة ، لا نرى خلالها بصيصاً من النور . . »

قال غوغسا :

- « لم لا نحاول كسب تأييد الانجليز والفرنسيين ؟ »

- « لن تكون عروضنا يا عزيزي أشد إغراءً لهم، لقد قدم لهم تفري كل ما يريدونه من بلادنا ، وأثبت لهم إخلاصه

ووفاءه ، إن له مكانة كبرى بينهم ، ونحن في الواقع لا نستطيع منافسته . . »

وأخذ غوغسا يفكر ثم قال :

- « والجيش يا زوديتو ؟؟ »

- « لا أمل فيه »

- « ولماذا ؟؟ »

- « إن كبار ضباطه من أصدقاء تفري ، وقد أغدق تفري عليهم المنح والرتب، بالإضافة إلى أنه ملأ الجيش بالجواسيس والعيون . وبث فيه الرعب . . . لقد اتبع كل سبيل للسيطرة على الجيش . . إن تفري لا يفكر إلا في التمكين لنفسه بشتى الوسائل ، ولا يضيع لحظة واحدة في غير ذلك . . . إنه يضحي بأي شيء لكي يثبت دعائم سلطانه ، هل نسيت أنه قتل زوجته ؟؟ »

- « ماذا نفعل يا زوديتو ؟؟ يجب أن نتحرك . مستحيل أن نرضى بهذا الهوان . . إن الشعب يسخر منك . . أتفهمين ؟؟ »

- « يؤسفني أن أقرر ليس أمامي بصيص من نور .. »

سدد إليها غوغسا نظرات حادة وقال :

- « بل أمامنا باب لم نطرقه بعد »

- « ماذا ؟؟ »

اعتدل غوغسا في جلسته ، وتلفت يمنة ويسرة في تحفظ ، على الرغم من أنه يجلس مع زوجته وحدهما في

غرفة مغلقة ، ثم أخذ يشرح لها خطته . . ! إن الشعب لم يزل يحب إياسو لدرجة العبادة ، في الوقت الذي لا يحظى تفري بينهم بغير الحقد والمقت . وشرح لها كيف أن قوى الشعب ذخيرة لا تنفد ولا يغلبها غالب ، لأنها طاقة بلا حدود ، لا نهاية لها ، ولا شك أن انقلاب الشعب ضد تفري قد يغري الجيش بمعاداته ، وقد يجعل الكنيسة تعلن غضبها عليه ، والأجانب دائماً يقفون إلى جوار القوة الحقيقية إذا ما سقط عملاؤهم ، ويحاولون إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، والحفاظ على البقية الباقية من مصالحهم ، فاذا رأى الأجانب انهيار تفري ، أجهزوا عليه وناصروا أعداءه ، إنهم ينظرون إلى بعيد . .

وقال غوغسا :

ـ « أي عزيزتي الامبراطورة المسكينة ، إن لدي جيشاً لا بأس به . وسأعلن على الملأ خلع تفري ، وأطالب بإعادة إياسو صاحب الحق الشرعي إلى كرسي الحكم ، وإنني واثق أن الملايين من أبناء الشعب سينضمون إلينا ، وستندلع ثورة كبرى تحطم تفري وأذنابه ، وتعيد الأمور إلى نصابها . . »

قالت زوديتو :

ـ « إنها مغامرة خطرة يا غوغسا . . »

ـ « لن نصل إلى غاياتنا إلا بارتكاب المخاطر ، ولو لم يفعل تفري ذلك من قبل لما استطاع زحزحة إياسو . . وإن الخوف الكامن في قلوبنا سوف يؤدي إلى الضياع القاتل . . ماذا ننتظر يا زوجتي ؟ هل تأملين أن يثوب تفري الى الحق ،

ويهبك سلطاتك الحقيقية وأنت هكذا لا تملكين شيئاً من السلطة الفعلية ، إن تفري لا يفهم الأصول أو الدساتير ، المنطق الوحيد الذي يفهمه تفري هو منطق القوة . . القوة وحدها ، بالقوة حقق ما يريد ، وبالقوة هزم المثل العليا ، ورفع الحقارة والضعة والنفعية إلى كرسي الحكم . . فالقوة وحدها هي اللغة التي يفهمها تفري . . »

- « إنني أشعر بالخوف يا غوغسا »

- « زوديتو . . إنني رجل . . أكثر رجولة من تفري . . الخوف عار يا زوديتو . . الموت أهون منه عندي . . »

وصمت برهة ثم عاد يقول :

- « إذا استطعنا أن نقهر الخوف في نفوسنا فلسوفْ نقهر تفري ومفاسده لقد التزمنا الحكمة والتريث سنين طويلة حتى يرعوي تفري ، لكن لا فائدة . . إن الحل الآن يفرض نفسه . . السيف هو الذي يحسم الأمور . . »

وأخذ يفكر ، ثم استطرد :

- « وقوتنا لن تقوم على أسس غاشمة عمياء ، إنها تستند إلى الحق والشرعية ونحن ندعو إلى الحرية والعدالة والأخوة ، وترك التعصب والظلم . . . إنها نفس المبادىء التي نادى بها إياسو ، واستجاب لها الشعب . . ومن البديهي أن نحاول استمالة الكنيسة والأجانب ، إن أي تأييد منهما سيفيدنا . . لكن يجب ألا نكشف لهم عن خطتنا ، وألا نفاتحهم بالأمر إلا أثناء نشوب المعركة . . إن النصر المبدئي الذي سوف نحققه

قد يسهل مهمتنا . . »

لم تدر « زوديتو » كيف تجيب ، إنها ناقمة على وضعها الزائف المضحك ، وناقمة على استبداد تفري وأطماعه الخفية ، وهي تؤمن أن القوة وحدها هي القادرة على حسم الأمور ، وتحطيم تفري ، لكنها لا تستطيع أن تمنع نفسها من التفكير في نتيجة المعركة إذا ما حاقت الهزيمة بغوغسا . . . يجب أن تفكر في احتمالات الهزيمة والنصر وإلا كانت حالمة ، عارية من الخبرة والتجربة والمنطق . .

وأخيراً قالت زوديتو :

ـ « أيها العزيز غوغسا . . إنني أؤمن بضرورة الحركة والتضحية ، لكن هذا لا يمنع أن يعبث الخوف بقلبي . . إنني امرأة وزوجة . . وتفري ملعون خبيث لا يرحم . . ومع ذلك فلتسر على بركة الله . . »

انتشرت دعوة « غوغسا » في كل مكان . وزحف بقواته المحدودة في البداية ، وسرعان ما انضم إليها عشرات الألوف ، أتوا من كل مكان ، حاملين السلاح ، عاقدين العزم على النصر أو الموت ، هاتفين باسم « إياسو » . . . لقد عاد اسم إياسو ليتردد في كل مكان . . وعلى كل لسان . . إياسو الطيب الصابر ، الذي يقضي أيامه ولياليه وراء القضبان صابراً عابداً لله . . لقد عادت أغنيات الأمل على الشفاه مرة ثانية . . . إياسو . . إياسو . . يهتف الفلاحون القادمون من القرى والمزارع ، والرجال الذي يخترقون الغابات

والبحيرات ، والمواطنون المنحدرون من الجبال والتلال . . إياسو . . . إياسو . . وأحيط بتفري ، أن غوغسا يتقدم وينتصر ، والكنيسة يمزقها الرعب والهلع ، والعاصمة « أديس أبابا » تنام وهي تغلي وترتعد . . الانتظار القاتل يلف الجميع . . وغوغسا يتقدم . . بينما تفري يجري كالمحموم باحثاً عن حل . . الحشود الهائلة التي أقام صفوفها لم تستطع وقف الزحف الطاغي . . المدافع والبنادق والقنابل لم تعد تجدي نفعاً . . إنها تقتل أو تجرح بعض الرجال ، لكن الزحف لا يتوقف . . . الأجراس تدق في ذعر مجنون داعية الشعب للجهاد المقدس ضد غوغسا ، وإياسو السجين وزوديتو الماكرة . . لا فائدة . . إن تفري لا بد أن يجد حلاً سريعاً حاسماً . . وهرول إلى أصدقائه الفرنسيين .

- « الحل . . الحل . . إن العاصمة ستحاصر عن قريب ، وسيعود إياسو . . إياسو أيها الاصدقاء خصمكم اللدود . . »

قال القنصل الفرنسي :

- « نعلم ذلك . . لكن هذه مسألة داخلية . . »

- « بل مشكلة المسيحية في كل مكان وزمان . . »

- « يا تفري هذا الزحف لن يوقفه إلا شيء واحد . . »

قال تفري في لهفة :

- « ما هو يا سيدي ؟؟ »

- « سلاح الطيران الفرنسي . . »

- « ما الذي يمنع من استعماله . . »

- « ذلك مشكلة كبرى يا تفري . . نحن نعطيك المال والسلاح والخبرات ، أما أن نشترك بقواتنا علانية ، فهذا قد يثير شعبكم ، ويلصق بك التهم شخصياً ، فضلاً عن أن الدول الأخرى قد تعتب علينا . . »

قال تفري :

- « أنتم منا ونحن منكم ، إن عودة إياسو مأساة عالمية . . ثم ما هو الشعب ؟؟ إنه يؤيد المنتصر دائماً ، لن يتكلم عن اشتراككم وطيرانكم بعد أن ينهزم غوغسا وإياسو . إنني أعرف شعبي جيداً . وأعرف الوسيلة التي أسكته بها ، إن انتصارنا في هذه المعركة سينهي كل معارضة إلى الأبد . . استحلفكم بالله أيها السادة أن تصدروا أوامركم بتحرك الطيران الفرنسي . . إنه الحل الوحيد . . »

لم يمانع الفرنسيون في ذلك ، لكن لا بد أن يكون لذلك ثمنه ، مزيد من القواعد للقوات الفرنسية ، ومزيد من التعاقدات والتجارة والاتفاقات الثقافية . مزيد من المبشرين والبعثات الفنية والعسكرية والاستثمارات . . . وأشياء كثيرة أخرى طلبها الفرنسيون . . وتفري يقبل . . إنه يبيع نفسه ووطنه وخيرات وطنه كي يسحق غوغسا وإياسو . . . لكي يبقى ولياً للعهد . . وقائداً عاماً للجيش . . فليبق تفري ولتذهب الكرامة والغيرة الوطنية والاستقلال والحرية إلى الجحيم . .

* * *

في إقليم « أسمرة » ، في عام ١٩٣٠ ، وقوات الشعب وغوغسا يسحقون بأقدامهم فلول تفري ، ظهرت في الجو الطائرات الفرنسية بقيادة القائد الفرنسي « اندريه مايه » .. إنها أول معركة تظهر فيها الطائرات في سماء الحبشة ، وانهالت المتفجرات الفرنسية على الحشود المنتصرة المتقدمة ، وأدار غوغسا ورجاله رؤوسهم باحثين عن الموت المفاجىء . كانت السماء ترعد ، واللهب والدخان والغبار تملأ الجو ، وتلفت غوغسا حواليه ، فوجد رجاله يسقطون بالمئات .. لم يكن تفري وحده .. جاء ومعه الطائرات الفرنسية تسحق مقاومة شعبه .. إنه العار .. لقد ضاعت الحبشة ، وضاع مجدها .. لتذهب كل المعاني والقيم الجميلة إلى الجحيم ، وليبق الخائن الأوحد تفري ..

* * *

أحاط الخونة « بغوغسا » ، ثم أمسكوا به ..

وقدم تفري كعادته .

- « أيها المخدوع ، أولم يكن يكفيك أنك زوج الامبراطورة، وحاكماً لمقاطعة ، ماذا كنت تريد ؟ »

قال غوغسا المرهق الجريح :

- « أردت أن ينتصر الحق ، وتعود الحرية ، ويذهب المستعمرون الى بلادهم ، ويعود إياسو صاحب الحق الشرعي إلى عرشه .. »

- « لم تزل كالعهد بك يا غوغسا قصير النظر ، أرعن التصرفات .. »

. انت لم تنتصر يا تفري . . »

قال تفري وهو يقهقه :

ـ « وأنت ؟؟ هل تضع على جينك أكاليل الغار ؟؟ »

ـ « بل انتصرت الطائرات . . انتصر الفرنسيون حينما رموا بالنيران على الثوار من شعبنا العظيم . . هؤلاء المرتزقة لا يحاربون بلا قيد . . أنت تعرف يا تفري الخائن الثمن الذي قدمته لهم . . لقد قدمت وستقدم لهم دائماً ـ الكثير من كرامة شعبك وحرياته . . إذهب ملعوناً . . »

ثم بصق في وجهه ، فارتعدت فرائص تفري ، وساد الشحوب وجهه وصرخ كمجنون ، وقال في حنق :

ـ « هذه البصقة ستكلفك حياتك . . »

والتفت تفري إلى جنوده قائلاً :

ـ « اذبحوه كما تذبح الشاة . . . وهاتوا رأسه كي أقدمها هدية للامبراطورة المسكينة زوديتو . . »

ومات غوغسا مذبوحاً . . وألقيت رأسه عند قدمي تفري .

وفي اليوم التالي أعلن « تفري » وفاة الامبراطورة « زوديتو » . . لقد ماتت بالسم . . الطريقة المفضلة لدى تفري . .

وأعلن تفري نفسه على الفور « امبراطوراً للحبشة » باسم « هيلاسيلاسي » سبط يهوذا ، وظل الله على الأرض . . .

وبقي إياسو الطيب في سجنه البعيد : يحيا في الصمت والظلام ، لا يكف لسانه عن ذكر الله . . . .

١٩

عشرة أعوام ونصف . . يا لها من مدة طويلة . . بين القضبان الصدئة القاسية ، والجدران الصلدة التي تـأكل طلاؤها القديم ، وأوجه السجناء الغلاظ الصامتين ، وعدم معرفة أي شيء عما يجري خارج الأسوار اللهم إلا الشيء القليل . . وبعد عن الأهل والأصدقاء وأبناء الشعب المسكين . . عشرة أعوام ونصف قضاها إيـاسو بعيداً عن المعارك والحركة والدعوة لمبادئه . . عشرة أعوام ونصف يمرح فيها « تفري » ، ويدبر مكائده ، ويسحق المعاني النبيلة ، ويقرب المنافقين والنفعيين والخونة ، ويحارب الأصلاء والأحرار ، ويصب حقده الأسود الرهيب على رؤوس المسلمين وعلمائهم ، لا لشيء إلا لأنهم مسلمون ، وأنهم قد أحبوا إيـاسو وساروا وراءه في طريق الخير والحب والسلام . .

لقد مات أبوه . . وماتت مالفن . . وكذلك خالته الامبراطورة زوديتو وزوجها غوغسا ، وذبح عشرات الألوف من الرجال المخلصين الأوفياء ، إن إيـاسو يؤمن بالله وبشعبه ،

وكان يعلق كثيراً من الآمال على انتفاضة غوغسا ، لكن الفرنسيين أخلوا بميزان القوى ، واستطاعت طائراتهم أن تحول نصر الأمة إلى هزيمة ، وأن تجعل من تفري امبراطوراً .. باسم « هيلاسيلاسي » .. ظل الله في الأرض .. وما هو في الحقيقة إلا ظل للشيطان .. ظل أسود رهيب يغطي سماء الحبشة ، فيحيل هضابها وغاباتها ومراعيها ومدنها وقراها إلى ظلام دامس .. وحياتها الى ليل طويل أليم ، مضطرب الأحلام ، ملىء بالهول والاشباح .. إن الظل الأسود الرهيب يبسط ستائره الداكنة الثقيلة فوق القلوب والعقول ، والانسان والحيوان . ودمعت عينا « إياسو » .. أين النصر ؟؟ وأين إرادة الشعب المغلوب على أمره ؟ ولماذا تسمح الأقدار لهذا الظل الأسود أن يوشح الوجود ، ويعتصر قلوب البشر ؟! إن همسات من يأس تتردد في روح إياسو المتعب المكدود ، لقد طال الصبر والانتظار ، وازداد عدد الضحايا ، وهيلاسيلاسي اللعين ، يدوس الأشلاء والجماجم والمقدسات ، ويصعد .. ويصعد إلى أعلى .. ورؤوس الشعب الذليل تنحني ، وتعفر جباهها بتراب نعليه .. لقد ماتت المعاني الشريفة في قلب البشر لطول القهر والعذاب والحرمان .. فهل استكان الناس للذل ، ورضخوا لليأس والخوف ، ولم يعد هناك أمل ، أتلك هي النهاية ؟؟ مستحيل أن يحدث ذلك ، لقد طال الأسى والعذاب ، هل من الضروري أن يطول بقاء الأشقياء ، وأن يصعدوا القمة تحيط بهم الخبائث والموبقات ؟؟ إن إياسو يعرف أن للظلم نهاية .. لكن قلب الإنسان المحترق بين

حناياه يتمرد . . يثور . . يدعو الله في حرارة وتشبث . . أيظل إيـاسو طول عمره رهين محبسه ؟؟ إنه شيء أفظع من الموت ، لكم يود أن يخرج ، وأن يلقى منيته في ميدان جهاد حاد عاصف . هو يعلم أن الصبر على بلاء السجن جهاد . . . لكن لحظات التعاسة التي تمر به لحظات قاسية بشعة ، إن ساعة منها تساوي عمـراً بأكمله ، وإيـاسو يعتـرف أنه في بعض الأحيان ، يتأرجح بين الشك واليقين ، ويتبرم بالدنيا والحياة ، ويتمنى ألا يكون قد جاء إلى هذه الحياة القاسية المريرة ، وقد يصل شكه وتمرده الى درجة العتاب للأقدار، وسرعان ما يثوب إياسو إلى رشده ، ويذرف دموع الندم ، ويهتف من أعماقه « غفرانك يا رب . . فلترحم ضعفي . . إنني إنسان محدود الطاقة . . هكذا خلقتني . . لكن حياة السجن ميتة لا طعم لها . . إنني اقرأ القرآن فينشرح قلبي ، ويتسع ضيق السجن ، ويتحـول إلى جنة وارفـة الظلال ، وتفيض روحي بـالأمـل والإيمان . . لكن الأفكار يا إلّهي قد تشتط بي ، وتجرني إلى الضحايا . . أبي الذي قتلوه ، ومالفن المسكينة التي حاولت إقناعي ذات يوم بانفصالها عن هذا الشقي فرفضتُ . . . ورفاق الجهـاد في الأغـوار والمـزارع والجبـال . . ثم أفكـر في هيلاسيلاسي وقد انتصر بخبائثه ومكائده الشيطانية . . ماذا أقول ؟؟ إن جسدي أحياناً يلتهب بالثورة والحقد ، لكني أشعر بعجزي . . إن العجز قيد ثقيل يشدني إلى الأرض وعذابها ، وينهك قواي ، فتعصف الحسرة بروحي ، وتحيل ليلي إلى أرق ، وآمالي إلى أحزان وإيماني إلى عجز مرير . . ما أتعس

العاجزين !! إنني أمد بصري فلا أرى إلا الأسوار العالية ، وطيوراً تمرح في السماء . . ما أسعد الطيور !! ووجوه الحراس المكتئبة التي قد خاصمت الضحك ، ونسيت المسامرة . . إنهم يؤدون واجبهم في جمود وجفاف . . هل أصبح الشعب على هذه الصورة الميتة المؤسفة ؟؟ »

في صباح باكر ، سمع إياسو وقع أقدام الجندي خارج الزنزانة ، إن إياسو قد تعود على ذلك طوال السنين الفائتة ، ها هو الطاهي يحضر طعامه الرديء ، والذي يذكره دائماً بأيام خلت . . القصر . . الوصيفات . . الطاهي النظيف الثياب ، وألوان الطعام المختلفة . . لم يكن كل ذلك يلفت نظره من قبل . . لكن حياة السجن وسماتها الخاصة تجعله يعقد المقارنات ، ويستعيد الذكريات . .

وفتح الباب . نفس الوجه الجامد الذي يراه كل صباح ، ونفس الكلمة :

ـ « خذ طعامك »

ويفاجأ إياسو وهو يقضم الرغيف ، بورقة مدسوسة فيه : فيخطفها في لهفة . كلمات قصار ، قد شدت أعصابه ، وجعلت الدم يتدفق في عروقه قوياً هادراً ، إن الحياة تدب في هيكله المهدم من جديد ، هذا هو صوت الشعب ، إنه لم يمت ، لم يزل حياً يصارع عوامل الغدر والفناء والذل . . انه يعرف صوت شعبه :

ـ « إياسو . . كن متيقظاً ، وعلى أهبة الاستعداد قبل

الفجر بحوالي الساعة .. لقد حانت ساعة خلاصك من القيود »

تلك هي الكلمات التي قرأها إياسو .. لقد رقص قلبه في صدره ، لسوف يعود إلى الحياة من جديد ، ويثب فوق السفوح حاملاً مدفعه ، يتغنى بالحرية والجهاد ، ويقود الجموع إلى معارك البطولة والخلاص ، ويبعث الرعب والغيظ في قلب هيلاسيلاسي الطاغية .. الظل الأسود المقيت .. مرحباً بليالي النضال .. وتمتم إياسو « سامحني يا إلهي .. إن اليأس كفر ، والشك موت ، لقد آمنت أن التغير طبيعة الوجود .. الليل يعقبه النهار ، إنها بديهيات، لكن عقولنا المثقلة بالمتاعب والاضطهاد الطويل كثيراً ما تنسى البديهيات .. ترى من هؤلاء الرجال الذين يركبون الأخطار ، ويضحون بأنفسهم من أجلي ؟؟ إنهم لا ينسون .. هذا شيء رائع .. مرحباً بليالي النضال .. وبصحبة الأحرار .. »

وعاد إياسو يفكر بعد فترة ، ألا يمكن أن تكون هذه ألعوبة جديدة من ألاعيب هيلاسيلاسي ؟؟ إن جعبته لا تنفد من المكر والخداع والحيل الشيطانية ، لكن لماذا يلجأ لكل هذه الأساليب الملتوية ؟؟ إنه يستطيع أن يقتلني بإشارة من يده ، هذا ما يحيرني ، لماذا يتركني حتى الآن ؟؟ هل وراء ذلك سر لا أعرفه ؟؟ آه .. إن حياتي قصة دامية مشحونة بالأحداث والذكريات .. كانت بنت حاكم هرر أميرة فاتنة الحسن ، بارعة الذكاء ، سامية الخلق .. عقلها قادر على أن يسوس أمة

بأسرها. . .عندما تزوجتها شعرت أن روحي قد اخضوضرت وأشرقت بالزهروالياسمين والأريج العطر . .كانت حياتي معها على الرغم من قصرها نغماً حالماً فذاً. . .لماذا أتذكرها الآن يا إلّهي ، إن صورتها كلما خطرت على بالي ، عاد إليّ الماضي الجميل مجسماً نابضاً بالحياة . . يخيل إلي عندما أذكرها أنني على وشك أن أدق الجدران بقبضتي ورأسي وقدمي لأشق لي طريقاً إليها . . إلى الحياة . . إلى الناس . . إن كل ذلك شيء واحد . . هي والحياة والناس ، واللافتات التي تحمل شعاراتي وأمنياتي الغالية . . كثيراً ما تمنيت أن أكون فلاحاً يشق الأرض بفأسه ، ويرعى الأبقار ، ويمشي حافي القدمين ، لا يعلم عن الدنيا إلا قريته وأبقاره ومزارعها المحدودة » . . ليته لم يكن امبراطوراً في يوم من الأيام . . أشياء كثيرة تتوارد على ذهنه في هذه الأوقات الحرجة الحاسمة ، لكن لماذا يفكر في كل هذا الآن . . إن الرجال سيأتون بعد منتصف الليل . . سيشقون السياج الصلد الذي أقامه « هيلاسيلاسي » حول السجن . . وسيختطفون فارس الأمل إياسو . . ويبدأ النضال من جديد . . فلتصمت أجراس البغي يا هيلاسيلاسي اللعين . . وليسقط عهد الثعالب والذئاب ، ولتسقط سياسة الوحوش الضارية . . ولتشدو أغاني النضال على الروابي والسهول . . والله أكبر . . لسوف يأتي الرفاق ، ولسوف أخرج للشارع والحياة والناس ، ستنقلب الحبشة رأساً على عقب . وستعود معركة الأفكار من جديد . . ستشتعل العقول بحثاً عن الحقيقة . . صلى الله عليك يا راعي الغنم . . كيف صارعت

الطغيان وأنت في حفنة صغيرة مضطهدة من الرجال الصابرين ، وحولكم الألوف يحملون الغدر والحراب والمكيدة . . صلى الله عليك يا محمد . . أيها المثل الأعلى . .

* * *

الباب يفتح ، وأيد حانية تأخذ بذراع إياسو ، ويهرولون به إلى الخارج، الحراس المقيدون بالحبال، يزمجرون وقد كممت أفواههم ، ونحيت عنهم أسلحتهم . ويعبر إياسو والرجال بوابة السجن الضخمة ، ويمتطون الجياد وينطلقون إلى الفضاء العريض ، والنجوم تلمع في كبد السماء ، ونسمات رطبة تلامس الوجوه المحتقنة.

- « من أنتم ؟؟ »

قالها إياسو مراراً دون أن يجيبه أحد ، ولما بلغ الرجال مأمنهم ، وأماطوا اللثام عن وجوههم ، قال أحدهم :

- « نحن رجالك . . جئنا لننقذك من براثن الوحش الآدمي . . نحن نفكر وندبر منذ سنوات . . إن الرجل الذي أحب شعبه ، وأحبه شعبه ، لا يصح أن يبقى خلف القضبان رهينة في يد الشيطان . . نحن رجالك يا إياسو الحبيب . . »

قال إياسو وهو يدقق النظر في وجوههم :

- « لكني لا أعرف أحداً منكم »

- « نحن نعرفك . . يا حامل لواء الحرية والتسامح والعدل على أرضنا الطاهرة . . حاربنا إلى جوارك . . ورأينا فيك

القائد الهمام ، والأخ الرحيم ، والإنسان صاحب القلب الكبير . . »

هز إياسو رأسه في رضى وقال :

ـ « أجل . . يخيل إلي أنني رأيت هذه الوجوه من قبل . . لكأني أعرفكم من سنين طويلة . . »

قال أحد الرجال :

ـ « يجب أن نستريح أولاً . . إن لنا معك حديثاً طويلاً . . لا بد أن نشعل الثورة من جديد . . لن يستطيع « هيلاسيلاسي » أن يلاحقنا بالطائرات الفرنسية مرة أخرى . . لسوف نشن عليه حرب العصابات ، سنكبده الكثير من الجهد والعنت ، ونحيل أمنه إلى خوف ، وسنذل كبرياءه ، ونعطيه درساً لن ينساه . . هذا المأفون ما زال يقتل الأبرياء ، ويدمر قرى المسلمين عن آخرها ، ويستولي على ماشيتهم ، ويطردهم من أراضيهم ، ويهدم المساجد ، ليقيم الكنائس على أنقاضها باسم الرب يسوع . . »

وتلفت إياسو حواليه ، ما أحلى الحرية !!! لكأن الوجود بكل ما فيه كأس شهية لامست شفتي إياسو الظامىء ، إنه يريد أن يعانق كل شيء الناس والأشجار والجبال والحيوانات . . إن فرحة غامرة تملأ قلبه ، لم يعد يشعر بأثقال عنيدة تشده إلى الأرض ، إنه يخفّ ويخفّ . . حتى ليبدو له أنه يستطيع الطيران قرب السحاب ! ما أحلى الحرية . . إنه لا يشعر بجوع ، وليس لديه رغبة في النوم ، يريد إياسو أن يعانق هؤلاء الرجال ، وأن

يتحدث معهم حديثاً طويلاً لا ينتهي . . وهو يشعر برغبة جارفة في رؤية الأطفال . . لكم يحب هذه الطيور الحبيبة . . هؤلاء الأطفال عيونهم الصغيرة تنطق بالبراءة ، وابتساماتهم الصادقة تعبر عن الطهر والوداعة . ويريد أن يرى الفلاحين منحدرين نحو حقولهم عند مطلع الشمس يسوقون أغنامهم وأبقارهم إلى الزروع الخضر . . . يريد أن يرى الضجيج والحركة في الشوارع والطرقات ، ويسمع نداءات الباعة ومشاجراتهم . . يريد أن يرى الحياة بكل ما فيها من ألوان . . لعنة الله على السجن . . إنه حرمان بل موت بشع . . إنه ليل طويل يطحنه العذاب والأسى . .

* * *

انقلبت العاصمة رأساً على عقب ، وأرغى هيلاسيلاسي وأزبد ، وأصدر أمره ، بالقبض على الحراس « المقبوض عليهم » ، وقرر قتل من تسبب في فرار إيا سو ، ورصد المكافآت الضخمة لمن يأتي به حياً أو ميتاً . . وساق آلاف الجنود لمحاصرة المنطقة التي نزل بها ، وأخذ الجنود يضيقون الحصار يوماً بعد يوم ، ويسحقون في طريقهم القرى والكفور ، ويبذرون الرعب في كل مكان . . .

وها هو إيا سو ـ وقد شعر بأنه سيقع في يد أعدائه ـ يركب جواده وينطلق إلى بعيد ، إنه لا يريد أن يجر الرجال معه إلى هاوية السجن السحيقة ، وعند أحد المنافذ الجبلية أحاطت به قوات هيلاسيلاسي من كل جانب . .

عادت القيود . . .

وعادت الأسوار العالية ، والقضبان الصدئة . .

وأوجه السجناء القساة أولئك الذين خاصمت وجوههم البسمة ، ونسيت حلاوة السمر والمرح . .

لم يعد للحياة معنى !! أيضع حداً لحياته بيديه ؟؟ حاشا لله !! ما هكذا يكون المؤمنون بالله وبمحمد عليه الصلاة والسلام ، لسوف يعود الى سجنه الجديد يحمل في قلبه الأمل ، ويغذي روحه بالإيمان ، ويقطع الوقت الطويل في الدعاء والقراءة وذكر الله . . لقد نذر نفسه لله ، ومن ثم فلم يعد إيـاسو ملكاً لنفسه .

عاد الظلام والليالي الطويلة الحالكة السواد .

مضت تلك الفترة القصيرة التي قضاها في الخارج بعد هروبه مرور الحلم . . هل كان ما حدث حقيقة ؟؟

قال له السجان :

ـ « تصور أيها الامبراطور المسكين . . أن الناس في جميع أنحاء الحبشة لا يصدقون أن هيلاسيلاسي قد استطاع القبض عليك وإعادتـك إلى السجن ، إنهم يقولون إنك لم تزل تجمع الرجال ، وتعد السلاح ، وتنتقل من مكان لمكان استعداداً للمعركة الفاصلة . . »

وقهقه السجان في سخرية :

ـ « أنا نفسي كدت أصدق مزاعمهم مع أنك معي في السجن . . إنني آتي كل يوم لأنظر إلى وجهك كي أتأكد أنك أنت إيـاسو ، والناس لا يصدقونني . . »

واقترب السجان منه ، وأمسك بكتفه ، وهتف :

ـ « قل لي بحق العذراء هل أنت إيـاسو المسلم ؟؟ »

ابتسم إيـاسو :

ـ « أنا إيـاسو . . أنا لست أسطورة . . »

ـ « أكاد لا أصدقك . . إن ثورات كثيرة اندلعت في كل مكان . . الناس في بلاد كثيرة ينتظرون قدومك . . لكنك هنا ، وسيطول انتظارهم ، ولن يلتقوا بك أبداً . . »

شرد إيـاسو بفكره إلى بعيد وقال :

ـ « أنا هنا . . وأنا هناك . . ولن تستطيع قوة في الأرض أن تمنع لقائي معهم . . الأرواح جنود مجندة . . »

تلفت الحارس في ذعر وقال :

ـ « هنا وهناك ؟؟ كيف ؟؟ جيش من الأرواح ؟؟ كيف . . لسوف أجن . . »

وفر الجندي مـذعوراً، وهو يضرب كفاً بكف ، وبعد لحظة عاد الجندي ليقول :

ـ « أي إيـاسو الطيب . . لا تخبر أحداً أنني تحدثت معك . . الأوامر صريحة ، إن الحارس الذي يتحدث معك يكون مصيره العذاب الأليم والطرد من الخدمة ، بالله لا تخبر أحداً بذلك . . لم أستطع أن أمسك لساني ، إن ما يقال عنك في طول البلاد وعرضها قد ملأني بالفضول الذي لا يقاوم . . »

وتمتم إيـاسو وهو يهز رأسه :

ـ « أتخشون الناس، والله أحق أن تخشوه ؟؟ »

٢٠

في عام ١٩٣٥م، موسوليني يدق أبواب الحبشة بقبضته الحديدية ، والقوات الايطالية تزحف نحو الحدود مهددة مُتوعدة ، وهيلاسيلاسي يستنجد بالحلفاء ، لقد حانت لحظة الانتقام الإلّهي . . هيلاسيلاسي يحشد ربع مليون جندي . . الشعب يهتف « إيا سو . . إيا سو » إنه رجل الساعة . . لقد استطاع الاستعمار أن يجعل من الامبراطور الخائن عبداً له ! وهو بدوره أحال جيشه إلى جيش من العبيد . . إن الايطاليين يزحفون ويبيدون جنود هيلاسيلاسي عن آخرهم . .

لقد فقد هيلاسيلاسي جيشه . . .

وفقد ثقة الشعب منذ زمن بعيد . .

المعذبون الضائعون الأذلاء لا يستطيعون دفع العدوان . .

هيلاسيلاسي يتوثب كفأر مذعور . .

لقد ضاع كل شيء . وهدير كالرعد يصم الآذان « إيا سو . . إيا سو » . . ويبتسم هيلاسيلاسي ابتسامته الصفراء

الخبيثـة ، تلك التي تكشف عن أنيـاب الغـدر والمكـر والوحشية . . .

وإياسو سجين في حصن « غراموليتا »، يتسقط الأخبار المحزنة ، الحراس يركعون حوله ، ويسكبون عبرات الندم . .

ـ « أي إيا سو الحبيب . . لقد ضعـنا . . ضاع كل شيء . . والطليان قد سحقوا كل مقاومة . . إيا سو أيها الرجل الطيب . . إن الشعب كله يهتف باسمك . والطليان يرحبون بك . . لقد حانت ساعة الخلاص . . فاذكرنا إذا ما عدت إلى العاصمة مكللاً بالغار ، واذكرنا إذا ما فرشوا لك الطريق بالورود والرياحين . . ودقت الطبول إيذاناً بانتهاء الليل الطويل . . »

بكى إيـاسو ، وتمتم في أسى :

ـ « أأعود إلى العرش لكي أكون ألعوبة في أيدي الطليان ؟؟ ما الفرق إذن بيني وبين هيلاسيلاسي الذي حكم في ظل الحراب الانجليزية والفرنسية !! لو قرر لي الخروج ، فلن أخرج إلى قصر الامبراطورية . . إن رجالي هناك فوق السفوح وفي الوديـان والمزارع الخضر . . ومن هناك نحمل السلاح لنخلص البلاد من العدو الجديد . . »

* * *

في ليلة سوداء عاصفة ، يشوبها الحزن واليأس المرير ، قال هيلاسيلاسي :

ـ « أيها الرفاق الأعزاء ، لقد فقدنا كل شيء ، واحتل

الإيطاليون جزءً كبيراً من الحبشة ، لقد خسرنا الحرب . . ولا أستطيع البقاء بعد بذلك ، كيف أبقى ؟؟ إن الشعب يشعر نحوي بمشاعر غير ودية ، والطليان حاقدون عليّ لتعاوني مع الانجليز والفرنسيين . . إذا بقيت فسأساق إلى السجن ، وسيخرج إيا سو ليتوج امبراطوراً على الحبشة من جديد . . لا . . لن أقبل ذلك . . لقد قررت الهروب إلى انجلترا . . »

وساد الحجرة صمت رهيب . .

وعاد يقول :

ـ « لكن هناك مهمة خاصة لا بد من أدائها في مكان ما ».

ـ «أين؟؟ » قالها أحد الرجال مستفسراً .

رد « هيلاسيلاسي » في هدوء :

ـ « في غراموليتا . . »

ـ « غراموليتا ؟؟ ليس لنا فيها شيء ، إنه حصن قديم لا قيمة له . . »

سدد إليه « هيلاسيلاسي » نظرات ثاقبة وقال :

ـ « لنا فيها إياسو . . »

* * *

عندما وصل « هيلاسيلاسي » إلى غراموليتا في موكب مسلح ضخم ، ذعر الناس والحراس ، وصاحوا في فزع « الامبراطور . . الامبراطور » . لم يضع هيلاسيلاسي الوقت سدى ، وقصد لتوه إلى حيث يقيم إياسو :

ـ « ها قد التقينا يا إيـاسو من جديد . . »

قال أياسو :

ـ « لقد ضيعت كرامة الأمة ، وسحقت استقلالها بجهلك »

ـ « لا يصح أن تكلمني بهذه اللهجة يا صهري القديم . . إنه اللقاء الأخير بيننا ، ألا تعلم أني قد عزمت على الرحيل إلى انجلترا ؟؟ إن الطليان سيأتون إلى هنا عن قريب . . »

ـ « وما شأني بذلك كله . . »

ـ « أنت الامبراطور المرتقب يا إيا سو . . »

ـ « بل إنني خادم الشعب . . ولا أفكر إلا في حريته والدفاع عنها بكل ما أملك . . ؟

ـ « لن تستطيع ذلك يا إيا سو . . »

ـ « لماذا ؟؟ إنني لا أرهب قوة الإيطاليين . . »

ـ « لن تستطيع ذلك لسبب آخر . . »

ـ « ما هو ؟؟ »

ـ « لقد أصدرت حكمي عليك بالإعدام . . لن تعود إلى القصر امبراطوراً . . »

قال إيـاسو باسماً :

ـ « أنا لا يهمني الموت ، ولا أفكر فيه ، وإنما أفكر في المصير التعس الذي آلت إليه بلادنا . . أفكر في حماقتك التي أوردتنا موارد الضياع . . إن كنت يا هيلاسيلاسي تفر من الموت ، وتترك شعبك المسكين يواجه الكارثة وحده ، فأنا لن أفر . . ولن أستسلم للطليـان ، ولن أقبـل العـرش تحت وصـايتهم . . سأحارب . . الموت أو النصر . . »

قال هيلاسيلاسي في حقد :
ـ « بل الموت . . »
وأشار بيده . .

فانقض خمسة الرجال الأشداء ـ وأطبقوا على عنق إيـاسو المسكين . . كان إياسو يبتسم برغم احتقان وجهه ، وجحوظ عينيه ، لم يتألم أو يتململ ، وصرخ هيلاسيلاسي كالمجنون :

ـ « أطفئوا هذه الابتسامة من فوق شفتيه . . شجوا ذلك الجبين حتى يغرق الدم وجهه . . »
قال أحد الرجال وهو يتصبب عرقاً :
ـ « لقد مات يا جلالة الامبراطور . . . »

ـ « أقتلوه مرة ثانية . . وثالثة . . ورابعة . . أزيلوا جثته من أمامي . . خذوها إلى قبر مجهول بعيد . . بعيد جداً . . لا يعرفه أحد . . هذه الاسطورة السمجة ، يجب أن تختفي إلى الأبد ، إن تخلصي من هذا الكابوس هو الذي خفف عني مرارة الهزيمة التي أصبنا بها أمام الطليان . . هذا المجنون إيـاسو يبتسم . . إنه لم يـزل يبتسم . . كيف مع أنـه ميت ؟؟ لقد سمعتـه ينـطق بالشهادتين . . كان شجاعاً أمام الموت . . كنت أظنه سيهوي إلى حذائي ليقبله ويسكب فوقه العبرات . . حسبته سيضرع ويلتمس العفو . . لكنه لقي حتفه وهو يبتسم .. عفّروا وجهه بالتراب لعل هذه الابتسامة تختفي . . »

وأخذ « هيلاسيلاسي » يضرب الجثة بحذائه . ثم يتحول إلى من معه ويكيل لهم السباب واللكمات والركلات ، وهم حائرون

لا يدرون ماذا يفعلون . .

وتمتم بعد أن شعر باعياء شديد :

- « الآن ارتاحت نفسي ، وشفيت غليلي . . »

ثم زم هيلاسيلاسي شفتيه ، وانسكبت الدموع على الرغم منه . . قال أحد المقربين إليه :

- « لماذا تبكي يا صاحب الجلالة . . »

- « لأني مع كل ذلك أشعر أني عاجز . . . لقد قتلت إياسو لكني لم أزل أرهبه . . أشعر أنه يتعالى عليّ ويسخر مني ، وينظر إليّ وكأني طفل أحمق يلعب بالنار . . الحقيقة أنه لم يطفىء النار المشتعلة في قلبي . . . ! ابتسامة وجهه الميت الشاحب توجه اليًّ سخريات مرة وإهانات بالغة ، إن كلماته الجوفاء المقيتة تفرض نفسها عليًّ ، لم تزل تطن في رأسي . . »

- « لقد مات وانتهى الأمر . . »

- « أتظن أن الأمر انتهى فعلاً ؟! »

- « بالتأكيد يا مولاي . . »

- «إنني أشك في ذلك . . سيبكي الناس من أجله كما لم يبكوا من أجل سقوط الحبشة . وسيتغنون باسمه في كل مكان . . هؤلاء البلهاء العاطفيون ما زالوا يحبونه برغم السنين الطويلة التي مرت . .

إن الأمر لن ينتهي بعد . . انني أهرب إلى انجلترا ، وإياسو - على الرغم من أنه جثة - سيبقى هنا . . سيقولون عنه إنه بطل . . لأنه لم يهرب . . » .

ابتسم أحد الرجال وقال :

ـ « لقد مات . . هرب من الدنيا كلية . . إنك تجسم الأمور . . »

أفاق « هيلاسيلاسي » إلى نفسه وقال :

ـ « إنني أشعر بإرهاق شديد ، لم أنم طوال ليلة أمس . . هيا بنا . . » .

* * *

عندما أعلن نبأ موت إياسو ، هرعت الجموع الى الشوارع . . كان يوماً مشهوداً . . « هيلاسيلاسي » يبحث عن مخرج كي يهرب ، والملايين تتجه الى حصن غراموليتا باحثة عن قبر الشهيد العظيم . . الأسطورة الخالدة على الشفاه . .

هرب الثعلب والعار وراءه
وإياسو . . .
لم يزل يشدو بحق الضائعين . .
الرياض الخضر تبكي همته . .
والنداء الحر في سفح الجبل
ومواويل الرجال . . . .
إنهم يبكون في الليل الطويل
ليل « هيلاسيلاسي » الخائن العربيد . .
ذلك الظل الرهيب . . .
وحكايات قديمة . . .
وحكايات جديدة . . .

وأساطير شجية . .
عن فتى الأحراج . . عن نور الحياة
عن إياسو صاحب القلب الكبير . .
التحيات اليك . .
يا أبا الأمة . .
يا ربيع الحب . . يا إياسو . .
هرب الثعلب والعار وراءه . .
صفحة سوداء ، فالليل البهيم . .
مثل أوحال الخطيئة . .
هرب الثعلب والعار وراءه . .
فلك المجد إياسو . .
يا أبا الشعب الجريح . .
يا صلاة المتعبين . .
يا أماني التائهين . .
يا ربيع الحب . .
يا رمز الخلاص . .

* * *

. . . ودارت الأيـام،
فتحول «إيـاسو» إلى أسـطورة
تتناقلهـا الأجيال..وبقي حياً في القلوب
وسيبقى إلى أبد الآبدين. . . أما «هيلاسيلاسي»
فقد أصبح عبرة للمعتبرين. . بقي الناس
يلعنونه الى حين، ثم نُسي مع
المنسيين. . .

وللمؤلف أيضاً

١ـ عمالقة الشمال

٢ـ ليالي تركستان

٣ـ عذراء جاكرتا

من مَنشورَات «دَار النَفائس»

من منشورات النفائس
للأطفال والفتيان

● سلسلة أحسن القصص	عبد الفتاح رواس قلعجي
● سلسلة حكايات النفائس للأطفال	عدد من الأخصائيين
● سلسلة الكون والحياة	عدد من الأخصائيين
● سلسلة المغامرين الأذكياء	عبد الحميد الطرزي
● سلسلة «برهوم» . .	عبد الحميد الطرزي